

حاثم بفلسطین رنسدا غسازی ترجمه: میریام رزق الله

مراجعة وإشراف:

امیرة ابو الجد احمد الزیبادی

SOGNANDO PALESTINA © 2002 R.C.S. Libri SpA - Milano

الطبعة العربية الثالثة ٢٠٠٣

© دار الشرمة___

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى

رابعة العدوية مدينة نصر ص.ب: ٣٣ البانوراما ـ تليقون: ٢٣٣٩٩ ، ٤ (٢٠٢)

ص.ب: ۲۲ مباورات منطقون ۲۲۲۹۱ فاکس ۲۷: ۲۵ م ۲۷: (۲۰۲) البرید الالکترونی:

e-mail: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

رقم الإيداع : ۲۰۰۳/۳٤۲۰ الترقيم الدولي: × - ISBN 977 - 09 - 0922

رنسدا غسازي

حالم بفلسطين

ترجمة: ميريام رزق الله

شڪر

هناك أشخاص كثيرون أريد أن أشكرهم، سأكتفى بذكر أهمهم: ديفيد وهو يعرف السبب، مارينا التى حلمت معى، والداى؛ لأن ما أنا عليه، وما أقوله وأكتبه هو ثمرة ما حققاه: أبى لأنه هو الذى أفهمنى أن الفلسطينيين هم إخوتنا، وأن معاناتهم يجب أن تنتهى؛ بياتريس وكريستينا اللتين سمحتالى بتحقيق حلم حياتى؛ وقبل ذلك أختى رشا التى رافقتنى فى كل سطر كتبته مبللا بالعرق من هذا الكتاب والتى ظلت بجانبى دائما وبصبر لا حدله.

شكرا

أنا صامد..

أنا صامد صامد أنا صامد وبأرض بلادى أنا صامد وإن سرقوا زادى أنا صامد وإن قتلوا ولادى أنا صامد وإن هدموا بيتي يا بيتي أنا صامد صامد أنا صامد وبنفس أبية أنا صامد وعصا وشبرية أنا صامد والراية ف إيدى أنا صامد وإن قطعوا إيدى والراية بالإيد التانية أنا صامد أنا صامد صامد أنا صامد بحقلي وبستاني أنا صامد

بعزمی وإیمانی أنا صامد بظفری وأسنانی أنا صامد وإن زادت فی جسمی جروحی بجروحی ودمی أنا صامد أنا صامد صامد أنا صامد

أغنية فلسطينية نظم الخسيني الشاعر صلاح الحسيني

واحــد

لو أعرف لماذا أنا دائما؟ هه؟ . . أليس هناك أحد يمكنه عمل ذلك بدلا منى؟ هه، هناك رامى . . كلفوه هو بالمهمة! أنا فاض بى الكيل! لست عبدا لكم! تبالكم، أبدو لكم عبدا؟ هه، ربما أبدو كعبد؟ جهاد، ما رأيك، هل أبدو عبدا؟ هيا، قل الحقيقة! عبد أنا؟

ـ لا، لا تبـدو عبـدا يا إبراهيم! بتـاتا، بالعكس، تبـدو إمبـراطورا! إمبراطورا إغريقيا يـ . . .

_كُف عن هذا التخريف يا جهاد! ثم ما هذا الاسم الذي أطلق عليك؟ ما معنى جهاد؟

جهاد اسم جليل! أتعرف، إنه اسم من تلك الأسماء المحدثة. . المستح. . .

_المستحدثة! الأسماء المستحدثة في وقت الحرب! لقد أعدت علينا تلك القصة ألفي مرة!

- بالضبط، شكرا يا نضال! ولا تتكلم هكذا لأن اسمك هو واحد أيضا من تلك الأسماء المتحد. . المحدثة . . المسـ . .

_المستحدثة!

ـنعم، بالضبط، مستحدث في وقت الحرب! وهو يعني رجلا شجاعا، لا يستسلم، يقاتل! لأننا. . _اسكت يا جهاد! لماذا لا تذهب أنت؟ كلا. . أنا لست عبدا. . لماذا يجب أن أفعلها أنا دائما؟ ربما أبدو عبدا، أحمد، ما رأيك، هل أبدو عبدا؟

_هه؟ ماذا قلت يا إبراهيم؟

- أحمد، دعك من هذا الكتاب اللعين وقل لي: هل أبدو عبدا؟

ـ هل تعلم أنه كتاب رائع . . هل كنت تعرف أن المدخنين أقل عرضة من غير المدخنين للإصابة بمرض الزهايمر؟

- أحمد، اترك هذا الكتاب اللعين، وأجب: هل أبدو عبدا؟

ـ لا أفهم لماذا تقولها بنبرة احتقار! العبيد. . منذ قديم الزمان، عانوا معاناة كبيرة . . عملوا بعضلاتهم المفتولة ، وبقوة سواعدهم، وتصببوا عرقا، دون أن يتأثروا أو يظهر عليهم السخط لامتهان كرامتهم . . .

_لكن ما الداعى لكل هذا؟ أحمد، لقد سألتك فقط: هل أشبه العبد؟

ـ لا أدرى، أظن أن . . . آه، وليد، أخيرا حضرت!

-كم من الوقت يلزم لشراء علبة سجائر ، هنالك كشك للسجائر بزاوية الشارع ، ودكان في الناحية الأخرى من الطريق . . .

-الناحية الأخرى من الطريق، كما تسميها، تبعد ستمائة متر!

_ولنفرض! أنت شاب، يجب أن تدرب نفسك على الجرى! ثم هذه سجائر (فيليب موريس)! لقد طلبت منك (مارلبورو لايت»، ألا تعرف حتى شراء علبة سجائر؟ خمسة عشر عاما، ولا تستطيع القيام بشراء علبة سجائر؟ أخبرني بما يدور في رأسك؟ ثم ما هذا الشيء الذي في يدك؟

طراخ

- ـ لا إله إلا الله، ما هذا؟ حتى أمى لم تصفعنى هكذا، ماذا دهاك يا أحمد؟ لم أفعل شيئا!
- منذ متى تدخن أيها التعس؟ ارم هذه السيجارة فورا. . لا بل أعطنى إياها . . . أآه أتعرف أننى لم أدخن منذ يومين؟ ولتكن تلك المرة الأخيرة يا غبى ، إن كنت تريد أن تكون واحدا منا فلا أريد أن أرى سيجارة في يدك!
 - _لكنكم جميعا تدخنون!
 - ـ لكنك في الخامسة عشرة من عمرك يا غبي!
 - ـ لكن محمدا ورامي يدخنان من سن الثانية عشرة!
- هذا من شأنهما! كم أنت غبى! ثم، كيف تكون منا؟ ماذا دفعنا لضمك؟ كلا، اشرح لى من فضلك لأننى نسيت فعلا. . . كيف كنا من الغباء لنضمك إلينا؟ هه؟
- ـ أنا آسف، أنا آسف يا أحـمـد، أعـدك ألا يتكرر ذلك، أؤكـد لك! سامحنى. . . . إبراهيم، قــل له شيئا!
- هيا يا أحمد، وليد عنده الحق! لن يفعلها ثانية، هيا. . . اسمع يا وليد: في رأيك، هل أشبه العبد؟ قل لى الحقيقة . . هل وجهى وجه عبد؟

-عبد؟ حسنا، لا أدرى . لا ، لا يبدو لى كذلك، ربما قليلا، فكما ترى لك حاجبين كثيفين، وجبهة عريضة، وبشرة في لون القهوة العكرة، ثم إن أذنيك متسختان دائما، وفتحتى أنفك كبيرتان . .

_كيف تجرؤ! أرأيت هذا. . «قهوة عكرة»؟ هل رأيت سوء أدبه!

طراخ

- آى ا ولكن ماذا فعلت؟ أآآه، هذا موجع. . لِمَ تضربونني كلكم اليوم؟ لتذهبوا إلى الجحيد. .

طراخ

-حسنا، برافو، اذهب من أمامي وإلا صفعتك الثالثة، هل رأيت يا أحمد. . هؤلاء الفتيان تخطت صفاقتهم كل حد. .

ـ حسنا، لا أدرى ماذا أقول، ربماكنا قاسين بعض الشيء. .

لا تكن ضعيفا هكذا! إنه الأصغر، وعليه نبنى آمالنا! مستقبلنا فيه هو، ألا تفهم؟! يجب أن نراقبه دائما! الأمهات يصلحن للصفع والتدليل، أما نحن فللصفع فقط! أفهمت؟ يجب أن نربيه، لكن يجب أيضا أن نصنع منه رجلا صلبا، وإلا وجدنا أنفسنا أمام رجل خائر العزيمة يغمى عليه من منظر الدماء!

ـ حسنا، ربما عندك الحق..

- حسنا، لنعد لحديثنا الأصلى، هل أبدولك أشبه العبد؟ كلا، اعذرونى، فليس من العدل أن أذهب أنا دائما إلى البئر اكما أن الماء لا يصل إليها منذ أكثر من أسبوع! ماذا بكم؟ ثم بعد ذلك أشبه العبد!

- ـ لا أدرى بما أجيبك يا إبراهيم، فلا يمكن القول بأن لك وجها نبيلا..
- وما علاقة ذلك بالأمر؟ انتبه قليلا، أنا إبراهيم سمير سيدال رمضان، أترى أن هذا لا يهم؟ هه؟ أو ربا أشبه العبد..
 - _حسنا، لا أدرى . . ريهام، في رأيك، هل إبراهيم يشبه العبد؟
- _يا إلهى، كفى يا جهاد! أتريد هذا الشاى أم لا؟ يا إلهى. . ستتوقف أم لا؟! هيا، توقف الآن! اختف من أمامى! هه؟ ماذا تقول يا أحمد؟! عبد؟ لا أدرى . لى صديق يشبهه فى مصر، لكنه شخص غنى جدا، سليل عائلة عريقة ، ثرية منذ عدة أجيال .
- -آه، أترى يا أحمد؟ انظر هؤلاء المتخلفين. شكرا يا ريهام! أنت رائعة. الآن اذهب أنت إلى البئريا غبى! انظر هؤلاء البلهاء..
- ماذا تريد، لن أذهب إلى البشر! وماذا إن قابلت جنديا؟ وماذا إن أصابت رأسى رصاصة؟ ستقتل نفسك ندما، وشعورا بالذنب، ألبس كذلك؟ إلهى، يا للقسوة! وماذا إن طوقونى؟ وماذا إن قتلونى؟ أتريد أن أموت هكذا وحيدا مثل الكلاب؟! وبسبب غلطتك، وماذا بعد؟
 - ـ حسنا، هيا، لا داعي لكل ذلك! وليد! وليد!
 - _نعم! ماذا هنالك؟
 - ـخذ الدلو، واذهب لإحضار الماء.
 - _أنا! لكني عائد لتوى من شراء السجائر.

- لا يهمني ذلك البتة ، اذهب قبل أن تنال صفعة أخرى! - حاضر . . سأذهب ، أفي .

- هل أنت سعيد يا أبله؟ إذا قتل الجنود أحدا الآن، سيكون غلاما في الخامسة عشرة!

-ياه . . يا إلهى ، لا تُحمَّلنى الذنب! وماذا إن قتله الجنود؟ اسمع ، خذ كتابى ، وضعه فى الحقيبة . سأذهب مع وليد، وسأعود على الفور . .

_ يا إلهى، كم هو أبله! يجب أن نكلمهم عن الموت حتى يتحركوا. آه من هؤلاء الفتيان . .

يلقى إبراهيم نظرة خاطفة على كتاب أحمد، لكن الكتاب لا يحرك شيئا في نفسه لا شيء فهو لم يحب الكتب قط، ولم يتوصل أبدا لتحديد السبب . كانوا يجبرونه دائما على القراءة، في المدرسة لكنه كان يكره ذلك . . يكرهه . . كان ذلك يزعجه بشدة . كان حلى النقيض تماما _ يفضل لعب كرة القدم مع أصدقائه، في حين أن أحمد _ الذي كانوا يضعونه دائما لحراسة المرمى ؟ لأنه كان أقلهم فائدة _ كان مولعا بالقراءة . . حتى داخل الحمامات . . حتى في أثناء اللعب ، وأثناء حراسة المرمى ، بين الركلة والأخرى ، حتى وإن قيل في نهاية الأمر أنه لم يصد كرة ، ولا حتى واحدة ، لم يكن _ أبدا وادرا على اللعب ، لكن في الواقع كان لابد من حارس للمرمى ، ولم يكن هناك أحد على استعداد للقيام بتلك المهمة ؛ لأن كل واحد كان يرغب في آن يصبح أحسن هداف . . كلهم كانوا يريدون أن يكونوا أبطالا دائما . . في كل شيء . .

الكتاب الوحيد الذي يقرؤه إبراهيم عن طيب خاطر هو القرآن الكريم، وقد ورث حب قراءته عن والده الذي كان مؤذنا في أكبر جامع في المدينة، والذي كان يتردد عليه أكبر عدد من المصلين. كان أبوه شديد التدين. . رجل صالح . . قتل في الحرب ـ هو الآخر ـ إلا أن حادث مقتله لم يظهر على شاشة التليفزيون، لكن في الواقع، لا يهم أن يعرف العالم بما أن العالم لا يأبه البتة ليمت واحد أكثر. . واحد أقل. . ما هي إلا أرقام . . أفهمت مجرد أرقام . . ويكتفي الناس بقولهم «يا خسارة» ، بل قد لا يقولون شيئا بالمرة ؛ لأنهم مشغولون أكثر بتغيير القنوات. . لكن في الحقيقة ذلك لا يهم. . فما الفائدة؟ إنها ليست معركتهم . . لا تخصهم . . إنها بالتأكيد حرب الفلسطينيين وكفي، . . ليست حرب هذا الجزء من العالم الذي يشاهد التليفزيون . . بالتأكيد لا . . حتى لو تكلم وزير خارجية بلد ما مع قادة طرفي النزاع . . حتى لو عقد الرئيس الأمريكي اجتماعا. . حتى لو صرح أمين منظمة الأم المتحدة بقرارات تبعث على الثقة والاهتمام، فذلك لا يهمهم، وهم يعرفون ذلك جيدا؛ لأنهم_هم_ الذين اختاروا أن يقفوا بعيدا، وكما تعرف فإن الأمر بالنسبة لهم سيان ولا يهمهم بتاتا ـ فهم مشغولون بأمور أخرى . . والفلسطينيون يعرفون ذلك. . يعرفون ذلك جيدا. . ربما وجد بينهم مصرى، أو سورى، أو أردني! لكن ذلك لا يهم، فسيظلون اثنين أو ثلاثة. . والواقع أن الفلسطينيين يعرفون أنهم وحيدون، أيحزنكم ذلك؟ لكن تلك هي الحقيقة _ نعرف ذلك كلنا _ ننتظر كلنا أن يهزموا. . نعتقد أنهم سيهزمون. . نشيح بأنظارنا، ألا يبدو ذلك أسهل كثيرا؟

أغتيل زعيم منظمة التحرير الفلسطينية. . ماما أمريكا وبخت

إسرائيل (حقا!). . العالم يتطلع . . الفلسطينيون يردون . . ماما أمريكا تصفهم بالإرهابيين (حقا!). . العالم يتطلع. . واضح أن الإسرائيليين ليسوا إرهابيين - كلاااااا - ليسوا إلا جنودا مساكين يحملون بعض المدافع الصغيرة وقليلا من الدبابات. . انظر في المقابل للفلسطينيين . . يا لهم من قتلة سفاحين . . بتلك الأسلحة ذات التقنية العالية في مقدمة الجيش، والأجهزة الحديثة شديدة التعقيد _هل هي حجارة؟ _تلك الحصى الفتاكة والمصوبة بدقة، والكتائب العسكرية شديدة التنظيم . . العالم يتطلع . . إبراهيم يشرب كوب ماء.. وليد وأحمد يعودان. . لم يقتلهما أي جندي. . والخوف قُهر مرة أخرى . . ياه . . كم هذا مخيف! . وزير الشئون الخارجية الإيطالي تحدث مع عرفات. . لكن ما جدوى ذلك؟ إسرائيلي في الستين من عمره لقى مصرعه بالضفة الغربية. . شارون يطالب بهدنة من سبعة أيام . . إبراهيم يمسك في يده بصورة والده . . ينظر إليها . . تكتسى ملامح وجهه بنظرة فخر . . وبريق في عينيه . . تستمر ماما أمريكا في إرسال هدايا صغيرة للإسرائيليين . . نعم هدايا صغيرة . . مجرد هدايا صغيرة للقتل. . أسلحة . . العالم يتطلع . . تنحدر دمعة على خـد إبراهيم . . ولكن لا . . لا . . إنه رجل . . رجل . . ربوه دائما على ذلك . . على أن يكون رجلا . . لا للدموع . . لابد أن يكون قويا. . لابد. . بالقوة . . كيف السبيل للانتصار في الحرب وهو يبكى؟ لا يمكن . . العالم يتطلع . . يتطلع . . العالم يتطلع .

ريهام اريهام! أسرعى . . اللعنة . . ماذا تفعلين؟ آه ، حسنا ، أكيد عندك الحق . . مشغولة دائما بتجهيز الطعام ، أنت . . أشعر بالأسف لأجلك . . لعل المجازفة أفضل . . المشى على الأقل . . الخروج إلى الهواء الطلق . . بدلا من الجلوس بالبيت لإعداد الطعام للجميع . . ماذا نأكل؟ حمص ثانية ، يا إلهى! ألا تعرفين إلا طهى الحمص؟

_إبراهيم، إنه حمص بالصلصة اليوم، وأنا لعلمك _أستطيع طهى أصناف أخرى كثيرة، ولكن بما أن وليد لا يُحضِر لى سوى الحمص من البقال، فماذا عساى أن أطبخ غيره؟

ـ ولماذا لا يحضر هذا الغبي سوى الحمص؟

ـ في الخالب؛ لأن المال الذي تعطونه إياه لا يسمح إلا بشرائه! إنها نظرية بسيطة، اعقلوها.

_ماذا هنالك يا امرأة، أتسخرين مني؟

ـ المرأة لها اسم، يا رجل.

ـ لا تتهكمي عليَّ.

ـ وأنتَ، لا تسيء أدبك.

ـكم أود أن أعرف لماذا تزوجك نضال؟!

ـ لأنه ليس مثلك والحمد لله! والآن، ناد على الآخرين فالأكل جاهز، وتوقف عن تدخين تلك السيجارة الكريهة التي تكاد تخنقنا في هذا الجحر، وأنا التي لم أمسك بسيجارة قط في يدى تفوح منى رائحتها أكثر منكم، وأشعر برئتي تتمزقان! يجلس الرجال حول المائدة . . يأتى وليد بالخبز . . تضع ريهام ثلاثة أو أربعة أطباق على الطاولة الصغيرة . . يغمس كل واحد خبزه في الصلصة ، ويتناول ملعقة من الحمص . . يأكل الجميع في صمت . . غارقين في أفكارهم . وحده وليد يستمر في الشكوى لأنه محصور في الركن بين محمد صاحب البنية العريضة غير المبال به ، وإبراهيم الذي يجلس على المائدة ويمد ذراعيه ورجليه دون مراعاة لمن يجلس بجواره . ثم يخيم الصمت . . لا يُسمع إلا إبراهيم . . يقول إن البلدة المجاورة مات فيها اليوم ثلاثة فتيان . . ويث حضر جنديان . . وسمعا جلبة . . فالتفتا ، وأطلقا النار . أصيب أحد الجنديين بحجر . . جرح بسيط عند العين . . ويرد نضال قائلا إن جنديا إسرائيليا قُتل رشقا بالحجارة في رفح ، ويضيف رامى أن امرأة قتلت . . وأصيب زوجها بجراح خطيرة في الخليل على يد جماعة من الجنود الإسرائيليين .

ببطء . . ينه ضون . . ينشخل كل منهم بشيء . . واحد يعود لعمله . . ريهام تذهب لغسل الأطباق وتحضير الشاي . . نضال ينهض لمساعدتها . . ويتبعه إبراهيم ليقول له شيئا .

أحمد عنده مسدس. وجده مع جثة جندى إسرائيلى. . يخرجه كل يوم وينظفه بعناية . . انتبهوا! . . الأمر يبدو مهما جدا . . ذات مرة طلب منه وليد أن يلمسه، وقال له أحمد لا . . لأن ذلك خطر . . وألح وليد . . لماذا يكون ذلك خطرا؟ وفي لحظة معينة لمسه . . أخذه في يده . . انقض عليه أحمد و . . بوووم . . حدثت فرقعة . . ثم صرخة . . هرول الجميع إلى الحجرة . . وحين رأوا وليد على

الأرض. . ويديه على رأسه . . وأحمد ينحنى بجواره . . يرتجف . . انف جروا جميعا في الضحك . . يا الله . . كم هو غبى . . كم هو غبى . . كم هو غبى . . . كم هو غبى . . . أحمقان . . جبانان!

يتجمعون معا. . يشجعون بعضهم البعض . . ويضحكون من سخافتهم . . يضحكون . . كان من الممكن . . كان من المفروض . . أن يؤخذ الأمر بجدية في موقف كهذا . . إنها الحرب . . وليس شيئا آخو . . هناك بشر يموتون . . أرواح تزهق . . مصائر . . حيوات . . أتفهمون؟ حيوات . . لكن تظل هناك القدرة على الضحك من موقف هزلى ـ تظل هنا ـ ربحا لأنهم يريدون إقتاع أنفسهم أن هناك شيئا عاديا في حياتهم . . لأنهم يريدون استعادة هدوء الأشياء المألوفة . . وهكذا . . هم يعرفون ذلك . . رجال بالغون في مواجهة الحرب . . أطفال يلعبون أدوار الكبار ؛ لأنهم مجبرون على اللعب . . كبار يتمنون أن يصيروا صغارا . . أجساد وأفكار . كبار . . لكن مشاعر وضعف ومخاوف صغار . .

الحرب أنضجتهم . . نعم . . لم يرغبوا ذلك . . لكن هكذا صار الأمر . . فها هو . . جمال . . عشرون عاما . . شاب . . بسيط برىء . . لم يحصل حتى على شهادة متوسطة . . لم يكن يعرف حتى من هو كوفى أنان (يوم رآه فى التليفزيون سأل من يكون) . . هه ، حسنا . كان يزورهم أحيانا . يدخن سجائرهم . . يصلى معهم . . يأكل الحمص معهم . . يقبل نصائحهم . . يطلق السباب على شارون . . سفاح قذر . . دون حتى أن يعرف شكله . . أو ما فعله فى الحياة ـ كان يعرف فقط أنه سفاح قذر . . هكذا كانت الحال . . جمال حمل كراهية لم تكن منه وحده ، بل كراهية شعب بأسره . . وتصرف

بحيث أصبحت جزءا من شخصيته (التي لم تكن بارزة بالقدر الكافي . . كان لا يتكلم أبدا . . يأكل قليلا . . يدخن قليلا . . لا تطرف ولا مثل أعلى في الاستشهاد). . هذا هو جمال الذي يبصق التبغ على الأرض. . اغتصب أبوه أمه وقتلها. . وُضع أباه في السجن لكنه انتحر بأن شنق نفسه بملابس الحجز . . إخوته ، كلهم أصغر منه. . هاموا على وجوههم في الطرقات. . تزوجت أخته من رجل دائم الغياب عن المنزل. . (هكذا كانت تلك الأسرة المفككة). . تلك الشخصية الهامشية . . تلك الكلمات _ سفاح قذر _ مبصوقة مع التبغ على الأرض. . دون أن يعرف في حقيقة الأمر للذا. . هكذاً. . هكذا فحسب . . هكذا كبر جمال . . على نحو سيع. . على عجل. . دون إمكانية الاختيار _ غير المتاحة لأحد _ وكان الجميع يعرفون أن ذلك سيحدث يوما. . كان الجميع يعرفون ذلك. . لا بد أنه كان سيفعل شيئا إن آجلا أم عاجلا. . لم يكن أحد يريد ذلك . . لا أحد. . كلا جمال كلا . . لماذا؟ . . هناك سبل أخرى . . لكنه على العكس. . اقترب من إحدى قواعد قاعدة الجنود الإسرائيليين. . تركهم يفتشونه، ثم في لحظة معينة. .

فى لحظة معينة انفجرت القنبلة.. تفتت جسده إلى شظايا وأشلاء طرية من اللحم.. انفجر جسده.. وفجر وحده نقطة تفتيش إسرائيلية.. لقى خمسة جنود مصرعهم معه.. خمسة.. ومع وجود المشات منهم فى كل مكان، تساءل الناس: لماذا؟.. لماذا تضحى بحياتك لقتل خمسة فقط من الأعداء؟!.. عدد تافه.. ثم إن

دولتك في حاجة إليك بشكل آخر . . لماذا . . لكن لا أحد عنده إجابة . . نُقبِّلُك . . تَذَكّر . سنفتقلك . . أنت شجاع . . حقا . . أنا جاد في كلامي . . لا أدري إن كنت أملك القدرة للقيام بمثل ذلك العمل . . سنذكرك جميعا . . سننتصر . . سننتصر بفضلك أيضا . . ليحفظك الله . . وتركوه يرحل – وبعد حوالي عشرين ليحفظك الله . . وتركوه يرحل – تركوه يرحل – وبعد حوالي عشرين دقيقة . . وعلى مسافة بضعة كيلومترات انفجرت قنبلة . . انفجر جمال . . ونقطة تفتيش وخمسة جنود – أصيب آخرون ونجا قليلون ولم يتكلم عنه التليفزيون قط . . بل تكلم عن عرفات الذي كان عليه أن يرد على شارون الذي كان يريد هدنة سبعة أيام . . لكن لم تكن تلك هي الحقيقة . . كان تلك هي الحقيقة . . كان الأجدر بهم أن يتكلموا عن جمال ، لا عن شارون . . ترى ماذا يفعل شارون الآن . . ربما يتناول الشاي في منزله . . لكن هذا هو ما يحدث دائما . . دائما . . ليس بيد أحد حيلة . . وجمال لم يعرفه أحد . . لم يعرف أحد أنه كان يدخن سجائر «درام» ، ولا الكلمات التي كان يقولها – سفاح قذر – لن يعرف أحد ذلك أبدا . لكن تلك هي الحرب .

اثنسان

هناك أشياء تحدث بالصدفة. . ربما يحدث ذلك باختيار البشر . . مجرى الأحداث الغريب . . المصادفات . . الواقع هو أننا نواجه أنفسنا عند مرحلة ما من حياتنا ، ونتساءل : كيف وصلت إلى هنا؟ وهذا ما سأله إبراهيم لنفسه . . كيف وصل به الأمر إلى هنا . . كيف كانت حياته قبل العثور على هدف وأشخاص يصل معهم إلى الهسدف؟ أشحاص يفكرون مسئلك . . لهم نفس أفكارك ومعتقداتك . . ونفس الإصرار والعزيمة . .

إبراهيم كان في الواحدة والثلاثين من عمره، وخلفه حياة لم تكن سهلة.

أمه . . سيدة أردنية رائعة الجمال، تعرفت على والده أثناء مؤتمر عن علم الذرة في عمان، قبل عدة أعوام . . كان الاثنان مهندسين مل مدن متنب علمان الشتر المالة

شابين . . مثقفين ، يمتلثان بالرغبة في الحياة . انتقل و الده مع أسر ته إلى الأردن تاركا غزة بحثا عن فرصة عمل.،

المسل والمداح المرح إلى الوارك درك توبه عد من سلمي عزيز وكان لا يـزال يبـحث عـن عـمـل حـين تـزوج مـن سـلمي عـزيز عبدالرحمن.

عاشا بضعة أعوام في الأردن، ثم رحلا إلى إسرائيل. كانت عائلة فتحى والد إبراهيم قد سبقته إلى هناك، وكان يرغب في لقائها. ولد إبراهيم بعد ثلاثة أعوام من الزواج. كان طفلا جميلا ممتلئ الخدين، كان يزن أربعة كيلوجرامات ونصف الكيلوجرام عند الولادة، وكان دائم المرح والابتسام.

فى الخامسة، فقد والدته. كانت قد مرضت بنوع فتاك من سرطان الدم، وماتت بعد قرابة شهر من العذاب.

من الصعب شرح لطفل أن أمه قد ماتت.

صعب لأنه يصعب علينا تقبل الموت، أو فهمه. ما هو مستقبل طفل صغير بلا أم؟ لماذا يلزم على طفل صغير أن يكبر دون سند الأمومة؟

كان فتحى يعذب نفسه بتلك الأفكار ، فكان يهمل ابنه دون قصد.

كبر إبراهيم دون توجيه الأب أو الأم. كان طفلا قليل الكلام، منعزلا، عبوسا.

فى المدرسة، لم يكن له أصدقاء. فى البيت، لم يكن يفعل شيئا إلا المذاكرة والتحديق في ساعات فراغه في جدران غرفته.

أحيانا كان يقترب من عتبة غرفة والده، وينظر إليه وهو يصلى صلاة السنة بحركة بطيئة يضبطها إيقاع شفتيه ويحكمها نظام دقيق وثابت للصلوات، أو يسمعه يتلو آيات القرآن الكريم بصوته العميق الرخيم، الذي كان يبدو له أحيانا وكأن به رعشة.

ذهب إبراهيم إلى الجامعة. وسجل اسمه في كلية الحقوق، وكان ذلك يرجع بعض الشيء لقلة معرفته. كانت دراسة الحقوق تبدو له مفيدة، قد تمكنه يوما من الدفاع عن حقوق شعبه ليس بالقوة فحسب بل بالسياسة أيضا.

لم يكن إبراهيم من النوع الذي يفتح قلبه، إلا أن ذلك كان يبدو له أمرا ثانويا.

كان والده يكرس له وقتا قليلا: كان يستيقظ من النوم ويذهب لفتح المسجد لصلاة الفجر، وكان يبقى هناك للصلاة. . دقائق. . ساعات . . بلا ملل أو كلل .

كان إبراهيم يمتلئ زهوا في كل مرة يسمع فيها صوت أبيه القوى عبر مكبرات الصوت يدعو كل المسلمين إلى الصلاة.

كان يعده أمرا جديرا بالتقدير أنه بعد أن فَقَد والده شريكة عمره، اشتد إيمانه بدلا من أن يفتر. كان ذلك أمرا جليلا بالنسبة له، وانعكس عليه ذلك بزيادة إيمانه هو الآخر.

لم يَبْد والده شغوفا إلا بشيء واحد بخلاف العقيدة: الحرب.

الحرب التي كانت تغلى بداخله، تبدو في عينيه، مندن يوم ميلاده.

الحرب التي قتلت زملاءه. . أصدقاءه . . أقاربه .

الحرب التي كانت تتغذى على الدماء والدموع . . والتي كانت تضرب . بشراسة . . وبقوة . . على أبواب الفلسطينيين .

ذات مرة، سمع إبراهيم والده يتحدث إلى جماعة من المصلين بالمسجد.

كان فى العشرين من عمره، وكان ينظر بإعجاب شديد لأبيه الذى كان فى الأوقات النادرة التى يتحدث فيها إليه _ يذكره باستمرار أن يكون رجلا . . رجلا . . قويا . . عليك أن تقاتل ، يا إبراهيم . . عليك أن تفرض وجودك . . هذا بيتك . . هذه أرضك . . كل ما تملك . . دافع عنها بحياتك . .

كان والده يقول لتلك الجماعة من المصلين بالمسجد إنه حين يدخل العدو بيتك ويسلبك ملابسك، . . وحين يحتل حجرات بيتك . . وحين يحتل حجرات بيتك . . ويت ك لك ركنا بالردهة . . فقط ما يسمح لك بالوقوف أنت وعائلتك . . قال ذلك بالنص . . فقط ما يسمح لك بالوقوف أنت وعائلتك ، ثم بعد ذلك . . بعد أن يسلبك ما تملك . . يقول لك بساطة "لنصنع السلام" . . إن قلت لا . . أتكون إرهابيا؟ ألا تريد السلام؟ بالطبع تريده، كان والده يقول ، لكن . .

لا سلام بدون عدل.

هذا ما كان يقوله. . وعيناه مغلقتان. . وهو يبحث في ذاكرته عن صور الفلسطينيين الذين قتلوا . كان يقول هذا. . وهو يبحث عن صور زوجته، وأفراد عائلته ، وبلدته . . كان يقول . .

لاسلام يدون عدل

توقف إبراهيم . . نسى محاضرات الجامعة . . خلع نعليه ودخل إلى المسجد . . جلس على الأرض وانضم إلى المصلين يستمع إلى والده يقول . .

نحن على صواب . . تذكروا ذلك جيدا . . على صواب . . وحين كان يلمح ظلا . . ولو صغيرا . . على أحد الوجوه . . ظل يشك . . كان يقول . .

أرض كنعان . . تذكروا . . أصبحت أرض إسرائيل فيما بعد . . تذكروا . . بعد انتصار الإسرائيليين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد . . تذكروا . . هذه أرضنا . . ملكنا . .

والجهاد شرعي . .

شرعى..

تذكروا أن الله قال لنا دافعوا عن أرضكم وأهلكم. . ولو اعتدى أحد على أرضكم وادعى الأكاذيب على ما لكم . . وأفعاله . . ومخططاته . . وأفعاله . . واصنعوا به مثل ما يصنع بكم . . وستكون تلك حربا مقدسة . . الجهاد . .

ساعتها . . نظر إبراهيم في عيني أبيه . . إصرارهما . . ذاك الإصرار . . وأحس بالخوف يمتلكه حتى النخاع ؛ لأن هذا الرجل بدا مختلفا عن أبيه . . رجل وهب نفسه للوطن وللمعركة معركة شخصية ـ لأن أباه كان يصارع عدوا داخله . . من كان هذا العدو ؟

الألم..

كان الألم هو ما يصارعه داخل نفسه؛ لأنه كان يجب أن يكون رجلا. . دائما . . وبرغم كل شيء . .

ووالده. . بتلك النظرة. . وذلك الألم . . وهذا الإصــرار على القتال . .

كان رجلا.

ذات مساء، بعد العشاء. كان إبراهيم منهمكا. . كان في غرفته يذاكر ما لديه من محاضرات بالجامعة . ثم دخل والده الغرقة يحمل المصحف في يده، وتوقف لينظر إليه وهو منكب على أوراقه . يبدو ضعيفا جدا وصغيرا جدا . و تذكر نفسه وهو لا يزال بعد، في العشرين من عمره . عديم الثقة بالنفس وشديد البراءة . . تذكر نفسه . وضغط بقوة على غلاف المصحف المصنوع من الجلد . .

لا شك أنه فلتت منه تنهيدة، أو شىء ما؛ لأن إبراهيم التفت ونظر إليه. . وقال:

أبي . .

قالها إذ كان قد شعر لحظتها فقط يو جو د أبيه ،

فتقدم فتحى ووقف أمامه. .

وتلى الآية الكريمة:

﴿ وَلا تَحْسَبَنَ الَّذِينَ قُتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهَ أَمُواَتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبَهِمْ يُرزَقُونَ (177) فُرحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضَلَه وَيُسْتَبْشُرُونَ بِالَّذِينَ لَمَّ يُلْحَقُوا بِهِم مَنْ خَلْفُهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ . نظر إليه إبراهيم دون أن يفهم السبب وراء تلاوته تلك الآية.

- إبراهيم، إبراهيم، استيقظ! بسرعة!

_أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! ماذا؟!

استيقظ إبراهيم فجأة، ونظر حوله بهلع. أمامه كان يقف ابن عمه جمعة . . مذعورا . . باكيا . . مضطربا . .

كان يبكى . .

كان جمعة رجلا. . وكان يبكى . . ثم صرخ :

_أبوك!

شعر إبراهيم بالهلع يعتصر قلبه . . يداه تتجمدان فجأة . . يحس برعشة تهزه . . وانفج :

_ماذا؟ أين أبي؟ أين هو؟

أمسك به جمعة من ذراعه، وجذبه خارج السرير. .

وقال له. .

أبوك. .

أبوك. .

جريا معا خارج المنزل، واتجها فورا إلى الميدان، حيث اجتمع حشد من الناس. سمع عويلا. . رأى النساء تنتحبن. . الأطفال يبكون. . رآهم جميعا يجرون. . ثم رأى أباه. .

مددا على الأرض..

والكل ينظر إليه. . والدم يلطخ المكان. .

والمصحف مدنس بالدماء وملقى على الأرض. . مفتوح. . ممزق الغلاف. .

أبوه على الأرض. . كل هذا الدم! . .

جاء في أمان. . في يده القرآن. . بدأ يتلو الآيات. .

لعن الجنود. . أدان عُنفهم ووحشيتهم . .

احتشدت جماعة من المصلين تردد الآيات . . التهبت نفوسهم . . وتزايد سخطهم . .

ارتفعت كل الأيدي نحو السماء . . وتعالت أصواتهم . .

تقافز الأطفال صارخين أيضا. .

رفع فتحى صوته أكثر فأكثر..

صارت مظاهرة. . تصاعد الغضب . .

هاج الأولاد. . امتلأت نفوس النساء بالكراهية . .

شعر الجنود بخطر داهم. .

تدخلوا. .

بدءوا بإطلاق النار في الهواء . .

لكن الناس ـ وقد اعتادوا صوت الرشاشات ـ واصلوا الصراخ . .

مرددين كلمات المؤذن..

قَلَقَ الجِنُودُ أَكثرُ فَأَكثرُ . . صاروا مرعوبين . .

أشار فتحى بيده نحوهم . .

يتهمهم بسفك الدماء. .

بتدنيس المقدسات. .

ساندت الجموع صوته بصراخها . .

لم يكن سوى شيخ. . لم يفعل شيئا سوى تلاوة بعض الآيات. . لكنهم تدخلوا. . كان عددهم ضخما. .

وفي النهاية أطلقوا عليه النار . .

لاشك أنه فعل ذلك مدفوعا بقوة الإيمان . .

معتقدا أنها كافية. .

لكن الأمر انتهى به ممددا على الأرض. . والمصحف إلى جواره. . رحل تاركا ابنه وحيدا مرة ثانية .

إبراهيم شق طريقا لنفسه وسط الجموع. . متقدما ببطء. .

شعر وكأنه منت..

شعر وكأن كل ما يحدث شريط سينمائي. .

هذا لم يحدث . . أبوه لم يكن على الأرض . .

وكل هذا الدم لم ينزف أبدا.

اقترب من جسد أبيه . . انحنى . . تأمل اللحية الداكنة . . العينين المخمضتين . . الشفتين المفتوحتين قليلا . .

واستعاد عشرين عاما من عمره. . وسمع صوت والده. .

يتلو آيات الله بإيمان وورع . .

مديده نحو المصحف. . وقد اتسخ وتهتك . . أخذه في يده . .

وسمع نفسه يصرخ.

ترك إبراهيم الجامعة . .

وأخذ يطوف بين قرى غزة . . سنوات طويلة . . المصحف في يده . . وفي رأسه فكرة واحدة :

أن يكون رجلا.

أن يكون الرجل الذي كانه أبوه . . وأن يدافع عن وطنه . . يجلب السلام لشعبه . .

يثأر لكل القتلى..

لكل هذا الألم.

أحيانا كمان يُشَغل الراديو، ويسمع الأخبار، ويشعر بنار تحرقه وتدفعه للخروج.

كان يشعر بأنه في سبيله إلى الجنون .

كان ذلك في ١٩٩٢، وفاز حزب العمل في الانتخابات، وهكذا عاد رابين رئيسا للوزراء من جديد. وبحكم أنه كان نصف أردني، شعر إبراهيم بأنه خائن، فالملك حسين عاهل الأردن كما حكى له أبوه هجم بجيشه في ١٩٧٠ على الفلسطينيين مما أسفر عن مذبحة كبيرة.

كان أيلول الأسود يعود باستمرار إلى ذاكرته. لم يقو على استيعاب هذه المذبحة ودلالاتها.. وما أقدمت عليه الأردن في ١٩٨٥ م. من التطوع كوسيط لحل القضية الفلسطينية خفف بالكاد من حنقه وضغينته. انسحب الإسرائيليون من أراضى غزة بعد ثمانية عشر عاما من الاحتلال، لكن إبراهيم لم يتمكن من أن ينزع صورة والله من ذاكرته.. والمصحف.. وآخر ليلة تلا فتحى فيها عليه تلك الآية.

إبراهيم كان يريد أن يموت هو الآخر . . في سبيل الدفاع عن وطنه وأن يحظى بمكانة عند الله . . الحياة ومنافعها المادية لم تعد تعني له شيئا . .

كان لا يريد سوى السلام . . السلام لشعبه . .

وذاك السلام الداخلي الذي فقده منذ زمن بعيد. .

لكنه لم يقدر على نسيان تلك الجملة . .

لم يقدر . .

لا سلام بدون عدل.

كانت تلك تاسع قرية يزورها، لكنها بدت له أكثرهم وحشة. .

ما من إنسان على مرمى البصر . . فقط بضع بيوت مبعثرة هنا وهناك . . مسجد صغير . .

محلات قليلة، أغلبها مغلق ومتداع. .

مشى . .

مشى طويلا قبل أن يتوقف. .

توقف عند سماع صوت آذان الظهر . .

هكذا توقف إبراهيم ونظر حوله. .

رأى ولدا صغيرا يمشى بصعوبة. .

كان يحمل دلوا مملوءا بالماء، يسنده على كتفه بيد. .

وبالأخرى يمسك بيد بنتا صغيرة. .

كانت تبدو في الثالثة أو الرابعة من عمرها. .

لاأكثر..

كان وجهاهما متعبين . . متسخين . .

متعبين..

متسخين..

وكانا يتقدمان بصعوبة بالغة، هكذا. .

كما لو إن كل خطوة كانت تكلفهما الكثير من المشقة. .

شعر إبراهيم بقلبه مثقلا..

هذا الهم. .

ذكره بيوم مقتل والده. .

وأطبق على صدره. .

حمُّل الضمير . .

إبراهيم كان يعلم أن والده قد عاني . . عاني حتى آخر يوم . .

وصوته كانت تشوبه رعشة تكاد لا تحس. .

في كل مرة كان يقرأ فيها القرآن. .

وإبراهيم كان يمكنه المراهنة على أنه. . حتى في اليوم الأخير. .

وأثناء تلاوته القرآن. .

ارتعش صوت والده قليلا. .

تذكر كل هذا. .

لما رأى الطفلين. .

جاهد فى أن يقترب، وأن يتحدث إلى الولد الصغير.. أن يقول له صباح الخير.. صباح الخير.. أن يتحمل نظرة الرعب والتهديد معا التى فى عينيه.. أن يرى والده فى هذا الرجل الصغير.. فى هذا الطفل الكبير.. ورأى التوجس فى عينيه.. وقال له أساعدك.. أنا سأساعدك.. لا . لا تخف.. أريد فقط أن أساعدك.. لكن عبئا.. لا . لم يرض الصغير أن يعطه الدلو. الله أعلم.. ربما ظن أن إبراهيم أراد سرقته.. فدفعه الولد بذراعيه.. تراجع إبراهيم.. وأسرع الصغير مبتعدا عسكا بالدلو والطفلة...

بعد انتهاء صلاة الظهر، ظل إبراهيم جالسا على الأرض لعدة دقاتق. . في هذا الموضع الذي يسوده السلام. .

موضع السلام . .

إبراهيم كان يرى أن الجنة لابد أنها تشبه الجامع قليلا. .

حيث يسود السكون وحده . . السكون الذي يوحى بالأمان والطمئنان

السكون الحقيقي. .

المسالم..

الهدوء . .

وذلك الكمال..

أغلق عينيه، شعر وكأنه ارتفع إلى منزلة رفيعة، حيث لم تعد آلامه سوى ذكرى سيئة. .

لكن ذلك الشعور اختفي . .

لحظة أن أدرك أن هناك من يراقبه . .

أحس بأنه مراقب . . فانتبهت حواسه . .

نظر حوله ورأى شخصا يحدق فيه . .

كان رجلا طويلا جدا ونحيفا. .

ناحل الوجه. . حاد الملامح . . دقيق الشفتين . . مقوس الأنف . .

وعينيه واسعتين جدا غير متناسبتين مع سائر ملامحه. .

كان يبدو رجلا لطيفا ودودا. .

واستمر يحدق في إبراهيم، لكن دون تحفز أو ريبة. .

بل بلطف . .

كان يشعر بالفضول. .

لكنه لا يريد أن يحرجه . .

قام إبراهيم ومشى بخطوات بطيئة نحو باب الخروج من المسجد. . تناول حذاءه ولبسه . . ثم . . وهو لا يزال يتحرك بحساب. .

خرج. .

وهو يشعر بتلك النظرة الثاقبة تكاد تخترق ظهره. .

ثم إنه كان يعرف ذلك . أعنى . إنه شعور غريب . ليس هاجسا . ليس مصادفة . نحن نعرف فحسب . شيء يأتينا هكذا . لا يمكن السيطرة عليه . ولي يُحس ببساطة داخلك . . وفي الواقع أننا نستعد له لأننا نعرف أنه سيحدث . .

سيحدث . .

هكذا. . كان يعرف ذلك . . تماما مثلما حدث . . ولعله بتصرفاته المحسوبة أراد حَثَّ ذاك الرجل . . وقد تصرف بتلقائية ؛ لأنه كان يعرف أن الرجل سيكلمه . .

والواقع أنه كلمه. .

فَعَلَها. . وقال له . .

أهلا، أهلا. . قال له . . إنها المرة الأولى التي أراك فيها هنا في المسجد. . لعلك قادم من بلدة أخرى . . قالها له هكذا. . بشفتين تتحركان وكلمات تتطاير . .

تبدو شديدة الخفة . .

وكأنه قال له شيئا تافها . . من نوع أرأيت الجو اليوم؟ كم هو جميل ا . . أو كم هو جميل لون حذائك! تفاهة . . لا . . بالعكس . . قال له شيئا مهما . . كل . . .

وأجابه إبراهيم. .

اسمى إبراهيم.

كان الرجل البالغ الطول النحيف. . ناحل الوجه . . حاد الملامح . .

اسمه نضال . .

وفي الواقع لم يكن إلا في العشرين من عمره. . كان فتي شابا. .

لكنه كان يبدو ناضجا . . لم يعرف إبراهيم السبب . . لكنه كان يبدو ناضجا . .

وكانت كلماته تتطاير . .

وكان يعامل إبراهيم كأنه أخوه . .

نضال كان يعيش مع أخته وأمه. . أبوه كان قد هاجر إلى سوريا. .

كان يبدو شابا يمتلك سلاما داخليا عظيما. .

إبراهيم وجد ذلك غريبا. .

أن يوجد شخص شاب بهذه الرقة . .

واثق هكذا من دوره في الحياة. .

إبراهيم وجد ذلك غريبا. .

راق له نضال كثيرا. .

ذاك اليوم تحدثا قليلا، وتمشيا كثيرا. .

لاحظ إبراهيم أن البلدة منقسمة إلى منطقتين . . واحدة شبه مهجورة . . قطعها سيرا عند وصوله . . والأخرى يتركز فيها الناس . .

فيها وَجَد إحدى المقاهى مفتوحة . . ونوافذ المبانى الرمادية القديمة مفتوحة على مصارعها . . والحياة تتدفق . . وكأنها تتصارع . . وكأن الأيام تتمدد في لحظات أبدية يصعب شرحها . .

وقال له نضال إنه يوما ما سيتم تقديرك بشكل أفضل . . هذا ما قاله بالضبط . . أمامك كل الوقت . . كل الوقت . . يحدث شيء ما فقط من وقت لآخر . . لكن بالنسبة لسائر الوقت فكل شيء معلق . . مثل الموت . .

معلق. .

وتندهش أنك حي . . تعيش . . لكنك تكاد لا تلحظ ذلك . .

هكذا حَدَّثه . . وإبراهيم كان يندهش أكثر فأكثر . .

من هذا الرجل.

نضال كان يستحق أن يعيش حياة أفضل . . فكر إبراهيم . . كان شخصا شديد الذكاء . . لكنه اضطر إلى الانقطاع عن الدراسة ليعمل . .

الحياة ليست سهلة . . قال له نضال . . لابد من التحمل بشكل أو بآخر . . أليس كذلك؟

لا بد من التحمل..

هكذا انسابت الأيام..

إبراهيم كان ينام عند رجل عجوز يؤجر غرفتين في داره.

لكنه كان يمضى طوال النهار بالخارج . . مع نضال . .

كانا يثرثران أغلب الوقت. .

أو يبحثان عن أشغال صغيرة. . لتوفير بعض النقود.

كانا يعيشان يوما بيوم . . هكذا . . وفي وقت الحرب كان ذلك أفضل ما يمكن عمله .

ذات يوم . . كان إبراهيم ونضال يجلسان بالمقهى. . كانا يلعبان الشطرنج . .

حين سمعا أصواتا مكتومة تعلو نبراتها أكثر فأكثر . .

خرجا على الفور، ورأيا جماعة من الجنود تتجادل مع رجلين. . اشتدت نبرة الكلام عنفا. . وملامح الأعداء قسوة. . باختصار نشب عراك صغير. .

كان الجنود أربعة . . وبدوا جميعا واثقين بأنفسهم بشدة . . مختالين بزيهم العسكري . . أقوياء بالسلطة التي تمنحها لهم أسلحتهم . .

لكن إبراهيم وجد حشد المواطنين أخطر بكثير . .

فى تلك اللحظة اقترب نضال وإبراهيم من قلب العراك، ووقفا يستمعان إلى تعالى الصيحات من الطرفين . . وسمعا أن هؤلاء الجنود جاءوا إلى مدخل المسجد للتحقق . . على الأقل هذا ما زعمه ه . .

هكذا. . للتحقق من أن كل شيء على ما يرام. . وبديهي أن تلك الحجة لم تكن مقنعة . . لكن ذلك لم يكن مهما . . لم يكن مهما وجود دافع لجنود إسرائيليين لدخول المسجد . . ولا أن يُقدموا على ذلك بكل تبجع ووقاحة . . لم يكن مهما ؛ لأنهم كانوا الأقوى . . الأقوى . . دائما . .

وهذا ما كان يدور في ذهن إبراهيم، بينما نظرات عينيـه تزداد قلقا. .

لأن هؤلاء المساكين يخسرون دائما. . هكذا كان يفكر . .

حتى ولو كان الحق معهم. .

حتى ولو كان الحق معهم. .

كما أن الجنود لم يكتفوا بالوقوف عند المدخل بل دخلوا المسجد بأحذيتهم العسكرية الضخمة . .

مخلفين وراءهم، على بساط الصلاة الطاهر، وحلا وغبارا... رافعين أصواتهم.. مقاطعين ومشوشين على المصلمن...

لأنهم كانوا لابد أن يتحكموا. .

هذا ما قالوه. . هكذا بالضبط. . أنهم لابد أن يفتشوا. .

ماذا؟.. تساءل إبراهيم.. ماذا.. لكنه لم يقو على الكلام.. كان التوتر على أشده.. وكأنه يملأ نفوسهم.. قلوبهم..

وكان سينفجر . . كان سينفجر . .

بشكل بشع. . كانوا يعلمون ذلك. . وكانوا كلهم خائفين. . خوفا فظيعا. .

فكر إبراهيم . . إنها الحرب . .

الحرب البائسة . .

فكر إبراهيم. .

ورأى ما كان يخشاه في عيني واحد من الجنود. .

أكثرهم تكبرا. . أكثرهم غطرسة . .

كان هذا ما رآه في هاتين العينين . .

رأى شيئا قد اشتعل. .

كقدر محتوم ومباغت . .

هكذا. .

عينا هذا الجندي كانتا تقولان..

الآن، كفي...

كفي . .

بدأ الناس يصـرخـون. . يقـولون ارحـلوا عنا. . اتركـوا بلدنا. . وطننا. .

ارحلوا عنا...

واتركونا لشأننا. .

لا تدخلوا مساجدنا. . ولا تفسدوا حياتنا. .

وانطلقت اللعنات. . البصاق. .

حتى الخوف، عند البعض. .

بينما تعاظم التوتر . .

وحدث مأ حدث. .

في لحظة . .

شاب. . بدا في العشرين من عمره . . شاب يرتدي بنطلون «جينز» ممزق، وكوفية حول رقبته، ارتمي إلى الأمام . .

ربما، كان يأمل أن يصير بطلا. .

أن يصنع شيئا ملموسا. . حقيقيا لأجل بلده . .

لأجل شعبه . .

ارتمى إلى الأمام في لمح البصر . .

مديداه. .

أغلب الظن لضرب أحد الجنود. .

كانت لحظة تكاد لا ترى . . لم يُسمح الوقت لأحد بالتدخل . . بعمل أي شيء . .

ما عدا الجندى. .

أكثرهم غطرسة. .

الذي في سرعة البرق، وبحركة تكاد تكون آلية . .

آلية . .

بحركة مَن اعتاد إشهار سلاحه.

أطلق النار..

قَتَارَ. .

بحركة شبه آلية . . آلية . .

أطلق النار..

تلك اللحظات بدت وكأنها تذوب في لحظة واحدة:

قفزة الولد. . طلقة النار . . والجسد الذي سقط للخلف، بدَفَّعة غير مرثية . .

سقط..

وعويل امرأة، ذاك العويل الذي اخترق أذني إبراهيم. .

كما لو كان يريد أن يثقبهما . .

وفي تلك اللحظة، فقد إبراهيم السمع. .

لم يدم ذلك إلا لحظة. .

لحظة . .

لكنها بدت وكأنها ساعات. .

ساعات رأى فيها الدم يُسفك . . والجسد يسقط بصوت مكتوم . . والناس تُسارع . . والجنود يتراجعون أقل غطرسة ، هذه المرة . . أقل ثقة بالنفس ، هذه المرة . . بالموت في قلوبهم ، هذه المرة . .

برائحة الموت العفنة تحيط بهم . .

تحيط بهم جميعا. .

وهذا المشهد..

هذا المشهد..

كم هو مرعب ببطئه ولا نهائيته. .

وفظيع، ولَكُمْ..

لَكُمْ..

لَكَمْ هو حقيقي . .

هكذا بدا له ذلك المشهد. . أفظع ما أحزنه . .

لم يحزن مثل هذا الحزن منذ يوم مولده. .

أفظع ما أحزنه. . هذا الدم المسفوك، والجسد الساقط بصوت مكتوم، وهؤلاء الناس المسارعين، والجنود المتراجعين. .

أفظع ما أحزنه. .

عويل المرأة، وملامح الرعب المرسومة على وجوه الناس، وهذا العجز الجماعي. .

أفظع ما أحزنه. .

وهذه البلدة، وهذا الخراب، والموت القريب من الكل. . كل يوم . . صار الموت المفاجئ. وما نافيا المفاجئ. والموت غيسر المتوقع، والموت القريب، والموت الجائر، والموت المباغت. .

أفظع ما أحزنه. .

وهذا العالم وهؤلاء الناس وبلدهم. . ووطنهم . . وتاريخهم . . وتاريخهم الحزين ومصيرهم . .

أفظع ما أحزنه. .

كل هذه الأفكار في لحظة . . لحظة واحدة . . ليعود إلى هذا المشهد الواقعي الذي كان فيه . .

شاب ممدد على الأرض. . أو بالأحرى جسد شاب . . جسد أعزل . . والدم يسيل بغزارة . . والصراخ يزداد حدة . . والكراهية تطفح من عيون الناس . .

والألم الذي اجتاحهم فجأة، ساعة أن. .

كانت لحظة . . كانت لحظة . .

لاحظ إبراهيم حركة قريبة والتفت مرة واحدة. . يترقب مأساة جديدة . . بقلب يعتصره الخوف . . ورأى نضال يلتقط حجرا من الأرض. .

ويقذفه بقوة نحو الجندي الذي أطلق الرصاص. .

بقوة..

بحركة تجسد كل الضغينة والسخط وكذلك قلة حيلة رجل. .

وشعب. .

وكان إبراهيم يذكر نفسه دائما بتلك النظرة. . يذكرها كل لحظة من حياته . .

بينما نضال يلتقط الحجر ويقذفه

وعضلاته المشدودة بفعل الحركة . .

ومغزى تلك الحركة. .

انطبع كل ذلك في نفس إبراهيم . .

وعرف في تلك اللحظة أن الكوابيس ستلاحقه مدى الحياة. .

ستلاحقه بلا رحمة . .

وستميته. . تميته. .

تميته من داخله. .

حدث كل شيء ببطء شديد. . بدت الحركات البطيئة الدقيقة وكأنها مبرمجة . .

إحساس بشع بأن كل ما حدث كان مقررا حدوثه من قبل . . لم يكن بيده شيء . .

لم يكن بيدهم جميعهم شيء . .

ليقفوا دون موت هذا الفتى . . دون أن يُطلِق ذاك الجندى النار . .

دون حدوث أى من ذلك. .

صوَّب نضال الحجر والتفت الجندى في لمح البصر لتلافيه بسرعة عجيبة . . بينما سقط الحجر دون أن يصيبه . . ورفع جنديان بندقيتيهما نحو السماء الصافية وأطلقا النار . . تراجع الناس بذعر . . الكل يبحث عن ملاذ خلف سيارة . . خلف أي شيء يمكن الاحتماء به . . ثم خرجت امرأة حاسرة الرأس وارتمت على ابنها . . على الجسد الأعزل الممدد على الأرض . . باكية . . صارخة . . ناحبة . . ولدى . . ولدى !

وساعة أن رآها الجنود ترتمي إلى الأمام أطلقوا النار. . الأربعة ، كلهم. .

الأربعة، كلهم..

أطلقوا النار وأصيبت المرأة في أربعة مواضع مختلفة . . بالكتف اليُسرى . . بالساق اليُمني . . بالصدر . . وبالرقبة . .

انهارت على الأرض وتدفق الدم غزيرًا، وعند هذه النقطة. . ما من شيء كان يمكن عمله لتغيير ما حدث. . كان قدرا محتوما. .

كانت الآلة قد دارت..

آلة الحرب..

هنا أيضا. .

فجأة ظهرت شجاعة من مكان ما في قلب كل واحد. . شجاعة قصوى.

وها هي الأيدي . . والأذرع . . وها هم جميعا .

يأخذون في أيديهم حصى. . حجارة .

وفي هنيهة . . انفجر صراخ . . انطلقت قذائف . . اندفع الجميع . .

سمع إبراهيم نفسه يصرخ.

كما سمع نفسه من قبل يصرخ عندما رأى جثة والده.

كره إبراهيم هذا الصراخ الذي يخرج من أعماق ذاته المظلمة ويزلزل كيانه . .

كره هذا الصراخ.

لأنه لم يكن صراخ رجل.

ولا حتى مقاتل . . محارب . . قوى .

كان صراخ من قبل الحرب. .

لأنه حتى تلك اللحظة كان قد رأى أهوالا جمة.

لأنه عرف أنه لن ينجح أبدا في التعايش أكثر من ذلك مع الحرب. .

التي صارت الآن جزءا من حياته.

إبراهيم شاهد الحرب منذ يوم مولده.

وسيشهدها حتى الممات.

مات جنديان من الأربعة . . رجما بوحشية . . على حسب قول رابين ووفقا لما كُتب بالصحف اليومية . . لكن الغريب في المقابل . . الغريب . .

أنه لم يُكتب شيء عن الولد المقتول . .

وأمه المقتولة. .

كل ما قيل هو أن الجنود لم يبدءوا العراك، وعندما شرعوا فيه كان ذلك دفاعا شرعها. .

لم يعد إبراهيم يهتم بذلك. .

لأنه كان قد تعود على أكاذيب الصحف والأعداء. .

ما قلب كيانه . . إبراهيم . . هو أنه كان يَعرف أن نضالا دفع الآخرين لومي الحجارة . .

إن نضالا حرَّض على كل ذلك..

لذلك تساءل إبراهيم إذا ما كان هو أيضا مسئول بشكل ما . .

لأنه هو الذي أقنع نضالا أن القتال والعنف هما السلاحان الوحيدان الباقيان ضد الإسرائيليين. .

هو الذي قال لنضال إن الحوار أضحى مستحيلا.

إن اتفاقيات السلام لم تعد سوى سراب . .

أيعنى ذلك أنه صار سفاحا؟

إبراهيم، أنت سفاح! اسأل نفسك. . تبالك. . اسأل نفسك. . أنت سفاح! أنت سفاح!

هل كان أبوه سيفخر به؟ أم كان سيصاب بخيبة أمل؟

واقعة رمى الحجارة جمدت قوة وعقل كل واحد منهم . . بدت السلدة في حالة من التبلد العجيب . . الناس لا تخرج من بيوتها ولا يُسمع لها صوت . .

لازَم إبراهيم الفراش أياما طويلة . . دون أن يرى أحدا . . رفض رؤية نضال حوالى أسبوع . . وفى أحد الأيام طرق صاحب البيت العجوز بقوة على الباب وفتح له إبراهيم .

خَلْف الرجل العجوز وقف نضال الذي هم بالدخول شاكرا الرجل. . ثم أغلق نضال الباب خلفه ووقف ساكنا أمام إبراهيم . .

ثم بدأ يكلمه ويطلب منه أن يتمالك نفسه . . يتمالك نفسه . . لأن الحياة . .

- لأن الحياة يجب أن تستمر . أتفهم يا إبراهيم لا يمكنك أن تترك نفسك هكذا! أنا أيضا لم أكن أريد قتلهم . . أتفهم . . كانوا رجالا . . وقتلتهم . . لكن يا إبراهيم . . هم قتلوا رجالنا . . أرأيت كيف أسقطوا ذلك الفتى . . أرأيت؟ مثل الكلب . . مثل كلب بائس . . والمرأة . . أرأيت؟ أرأيت كيف قتلوا أمه؟ تخيل لو كانت تلك أمك يا إبراهيم . . أمك . . وأن هؤلاء الأنذال قستلوها هكذا . .

تبالك يا إبراهيم . . أفق . . أفق ا يريدون أن يقتلونا جميعا . . جميعا . . . حن آخرنا !

_نضال . . نضال . . نضال . . آه ، يا إلهى . . نضال . . كل هذا الدم . . هذا الدم . وكم صرخوا قبل أن يموتوا! يا إلهى . . نضال . . ماذا أفعل حتى أنام بالليل ؟ لقد قتلناهم . . نحن . . نضال . .

- إبراهيم . أرجوك . اسمعنى : هذه أرضنا . هذا وطننا . هذا واجبنا المقدس . أتفهم . . يجب علينا . . لا يسعنا التصرف بشكل آخر . . يجب أن نقاتل . . ننقذ أبناءنا ونسعى لمنحهم مستقبلا أفضل . . بلا جنود صعاليك يعيشون فسادا في المدن . . يُدنسون الجوامع . . ويُلوحون بأسلحتهم . . القرآن الكريم يقول ذلك يا إبراهيم . . فلو لم نفعله لاقترفنا ذنبا . . الله يقول قاتلوا من أجل أرضكم! وأنا سأقاتل يا إبراهيم . . حتى لو كلفني ذلك حياتي . . لا أريد أن أحيا طويلا أو أن أبلغ المائة من عمرى دون أن أتمكن من القول بأنني قد أديت واجبي كمسلم . . إبراهيم . . تفهم ذلك . . اليس كذلك ؟ تحتم على " مي تلك الحجارة . . تحتم على"!

-اسمعنى الآن جيدا! كن شجاعا، يا إبراهيم! كن رجلا! علينا أن نهزمهم بشجاعتنا! ببسالتنا!

لا بالشفقة والتسامح أو الضعف! أتفهمنى؟ إبراهيم، أتفهمنى؟ رُدِّ على أرجسوك. . قُل لى إنك مسعى! قل لى إنك مسعى! وإنك مسعى! . إننا سنقاتل. . وسنجعل العالم يسمعنا حتى آخر نفس . . حتى تخبو كل قوة فى أجسادنا ولا يمكننا أن نخدم وطننا! إبراهيم . . قل لى إنك معى . . تبالك . . إبراهيم . . افتح عينيك . . افتحهما يا إبراهيم!

ـ لا . . لا . . أنا . . آه ، يا إلهي . . يا إلهي . . نضال . ليرحمنا الله . . ليرحمنا الله . . لقد قتلناهم . . وهذا الولد . . وتلك المرأة . وكل هذا الدم . . نضال . . يا إلهي . . نضال . .

_إبراهيم. . اهدأ . . اهدأ ! أعسرف ذلك . . أعسرف أنك لم تعسد قادرا . . أفهمك . . أنا أيضا لا أقوى على مواجهة الموت . . إبراهيم . . أنا أيضا لست قادرا . . لكن لابد أن نقاوم ! إبراهيم هؤلاء السفلة يقتلوننا كل يوم . . أبناءنا . . نساءنا . . أمهاتنا . . آباءنا ! إبراهيم . . لا يسعك أن تتركني وحدى ! هذه معركتنا !

_نضال . . تبالك . . نضال . . أنا . أنا لا أعرف . . نضال . . لست قويا . . لست قويا . . لست قويا . . لست قويا مثلك . . لست قويا . .

_بلى! بلى، بالعكس! أنت قوى . . قوى جدا. . أنا متأكد من ذلك . . أنت أقوى منى! أفهمت؟ أفهمت؟ . . أفهمت؟ أجبنى؟

_أنا.. أنا.. أنا.. ن.. نعم، يا نضال.. فهمت.. أنا قد . قوى . . قوى مثلك. . سنقهرهم.. نضال.. أنا.. أنا.. قوى .

عظيم، يا إبراهيم . . عظيم . . كنت أعرف أنك ستفهم . . نحن الأفضل . . سنقهرهم . . سنكرس حياتنا لهذه الحرب . . وسنقهرهم . . أليس كذلك؟ أفهمت؟

_نـ. . نعم، يا نضال . فهمت .

_قل لى إنك لن تتخلى عنى أبدا . . وأنك ستتبعنى دائما . . فى كل ما سأفعل . . وستقاتل معى . . وسنناضل حتى الموت . . قل لى هذا يا إبراهيم . . عدنى بذلك!

_نعم يا نضال . . نعم . . أنا . . أعــ . . أعــك أنني لن أتخلى عنك . أبدا . . سأتبعك . . سأتبعك دائما . . وسأقاتل معك . . و . .

_عدنى بذلك . . عدنى بذلك ، يا إبراهيم!

ـو..و. سنناضل. سنناضل حتى الموت.

مَرَّ عامان. كان إبراهيم ونضال يقضيان كل وقتهما معا. . وتوطدت صداقتهما.

فى ذلك العام، ١٩٩٥ ، حدث تحول خطير فى حياة نضال كان له أيضا تأثير فى حياة إبراهيم .

ذات يوم وصل حوالى ثلاثون لاجئا فلسطينيا إلى البلدة، فقد كان لزاما عليهم أن يهجروا بيوتهم، لأن الإسرائيليين قرروا أن بلدتهم كانت مقرا لجماعة إرهابية، وهكذا هُدُمت بيوتهم، وصارت بلدتهم قاعدة إسرائيلية. لم يكن لهـ ولاء اللاجـ ثين مكانا يذهبـون إليـه، ومـا شــهـدوه من تضامن الناس معهم كان أمرا جديرا بالملاحظة . .

جديرا بالملاحظة؛ لأنه ما من أحد رفض استضافة أسرة منهم في بيته . . بل أكثر من ذلك . . كان الجميع على استعداد لمشاركة آلام هؤلاء الناس الأسوأ حظا منهم في محتهم .

واستضاف نضال أخوين عنده. . ولدا وبنتا. . جهاد وريهام.

كان جهاد متوسط القامة . . شعره فاتح وعيناه رماديتان . . داثم الابتسام . . شديد المرح . . كثير الضحك .

كان فتى خفيف الظل اجتماعيا، ونجح فى أن يُسى إبراهيم ونضال قليلا الحرب على ونضال قليلا الحرب على التيضيف التراد على نقيضهما . . لم يبدعليه التزعزع أو عدم الثقة . . وفى نظراته ، لم يكن هناك ألم . .

قال إبراهيم في نفسه أن هناك احتمالين . .

إما أنه لم ير بعد أهوال الحرب. الموت. الدمار. . الكول. الدمار. . الكراهية . .

وإما أنه رجل ذو مقدرة هاثلة على المقاومة. . واحد من هؤلاء الأشخاص القادرين على النظر إلى الجانب الإيجابي للأشياء . .

لأنه كان يرى أنه ما من شيء يضيع إذا ما احتفظنا بالقدرة على الابتسام . .

وتلك القوة يجب أن نجدها دائماً. . ومَن يتمكن من ذلك يصر أقوى ممن يقاتلون. . فهم على العكس يعيشون حياة ملؤها الحقد والضغينة. .

فماذا تظنه يكون رد فعل الأعداء إذا ما رأوا أنه رغم كل آلام . . خسائر . . أهوال الحرب . . ماذا تظنه رد فعلهم إذا ما رأوا أنه برغم كل ذلك ما زلنا نحتفظ بالقدرة والشجاعة على الضحك؟

الضحك هو القوة . . لا الضعف . .

والسعادة هي طوق النجاة لنا. .

هذا ما كان يردده جهاد دائما. .

كان شابا متفائلا بشوشا، وكان لديه الكثير ليعلمه لإبراهيم ونضال. .

حتى وإن لم يتجاوز التاسعة عشرة . .

أما ربهام فكانت في الواحدة والعشرين من عمرها . . كانت لها نفس عيني أخيها الرماديتين ولها نفس النظرة العميقة . . قوام ممسوق . . شعر طويل جميل . . لها ابتسامة رائعة الجمال ، ترسم غمازتين على خديها . .

لم تكن بسمتها شبيهة ببسمة جهاد البهيجة . . ربما لأنها كانت أكبر منه . . أنضج منه . . ربما لأنها كانت أكثر إدراكا لواقع الحرب . .

على أية حال، كانت هي أيضا فتاة تلقائية. . بسيطة واجتماعية. .

كانت تهتم بأخيها بحنان جم وبإحساس عال بالمسئولية يفوق سنها. .

أحيانا كان إبراهيم يشعر بالأسف لها، حين يراها هكذا. . شديدة

التعلق بأخيها . . شديدة القلق والانشغال عليه حتى وإن أمكن تفسير السبب وراء هذا الارتباط العميق. .

فحين يضيع منك كل شيء . . بيتك . . عملك . . عائلتك . .

حياتك الطبيعية . .

فليس غريبا بعد ذلك، أن تتشبث بالإنسان الوحيد الذي بقى لك كما تتشبث بطوق النجاة . .

تغمره بالحب..

بكل الحب الذي وددت لو أنك قادر أن تمنحه لكل الأشخاص الذين لم يعد لهم وجود الآن . .

أسرة جهاد وريهام. . والديهما وأخويهما التوءمين، اللذين لم يبلغ عمرهما الأربعة أشهر واللذين أبيدا وهما بعد صغيران. .

فى ذلك اليوم دخلت الدبابات بلدتهم، وأطلق الجنود النار على كل الأشخاص الذين وجدوهم. . نساء . . شيوخا . . أطفالا . .

دخلوا كل البيوت. . وأشعلوا النيران في بعضها، بينما أصحابها لا يزالون بالداخل.

في البعض الآخر اغتصبوا النساء. . سرقوا المال. . ودمروا كل شيء . .

ضربوا الشيوخ. .

وحطموا عظام الأطفال. . دون أن يقتلوهم . . حتى يعانى الناس طويلا بأطفالهم المعاقين . .

يُمثلون عبثا على أسرهم . .

فينتهى الأمر بأن يكره الناس هؤلاء الأولاد. . الصغار . . الذين لن يقووا يوما ما حتى على الدفاع عن أهاليهم في الانتفاضة . .

الذين لن يقووا يوما ما على القتال كرجال . .

حَطموا عظام الأطفال. . ودمروا كل شيء . .

ولما بدأ الأولاد والرجال في التدخل. .

تراجع الآخرون. . ولم يتمكنوا من مهاجمة الحضانات والمدارس. .

لأنهم كانوا ليفعلوا ذلك . .

كانوا ليفعلوه. .

لو كانوا يقدرون.

ريهام وجهاد كانا بالمدرسة. .

ولما سُمعت الرصاصات الأولى. .

انفجر الأطفال كلهم في الصراخ. .

وصرخت المدرسات تحثهم على الاحتماء تحت الأدراج. .

انبطح الجميع على الأرض. . صارخين. . مذعورين. .

والخوف يعتصرهم . .

أصيب أطفال كثيرون بالإغماء من شدة الرعب. .

وانفجر آخرون في البكاء . .

كانت ريهام ترتعش . . جاحظة العينين . . لكن ليس بسبب طلقات الرصاص . .

بل بسبب أخيها . .

كانت تتساءل إن كان أخوها في فصله . .

في مأمن . .

بعيدا عنها . . بعيدا . .

فى الوقت الذى كانت أمها تنبهها كل يوم. . قبل أن تتركها تذهب إلى المدرسة . . أن تعتنى بأخيها . .

أن تحافظ عليه. .

أن تظل بجانبه مهما حدث . .

لم تكن ريهام قادرة على نزع تلك الوصايا من رأسها. .

وشعرت أنها أخت سيئة، لأنها لم تقم بواجبها نحوه. .

وبعد حوالى ساعتين من الفوضى والخوف . . بدأت المدرسات فى الخروج من الفصول . . من المدرسة . . ولم يدر الأطفال ماذا يفعلون . .

قرر بعض الأطفال الخروج والعودة لبيوتهم . .

وهؤلاء البؤساء . . هم الذين وجدهم الجنود وضربوهم . .

ونظرا لأن الوقت لم يسعهم لضرب الأطفال حتى يسيلوا دما. .

اكتفوا في بعض الحالات بكسر معاصمهم ليمنعوهم عن رمي الحجارة. .

مدى الحياة . .

ليمنعوهم عن الدفاع عن أنفسهم ضد أعداثهم.

ريهام وإنجى _ أخت نضال _ أصبحتا صديقتين في وقت قليل .

كانتا في نفس العمر تقريبا . . تقضيان أغلب النهار في الثرثرة بالمطبخ . .

فى الوقت الذى كان فيه إبراهيم ونضال وجهاد يقضون كل وقتهم خارج البيت . . فى المقهى أو الطرقات . . . فى المساجد . . وسط جماعات للشباب تتعاون لتكوين مجموعات صغيرة . .

للدفاع عن أهالي البلدة. .

كانت الأيام تمر بطيئة بلا نهاية . .

والحياة تستمر . .

حتى مع الألم والغضب. .

كانت تستمر..

لاحظ إبراهيم أن نضال شديد الاهتمام بريهام . . كانا يمضيان الكثير من الوقت سويا . . يتحادثان . . يتباسمان . . كانا على درجة خاصة جدا من التفاهم والشراكة . .

عينا نضال كانتا تلمعان عند ظهور ريهام . . وعندما تكون غائبة . . كان يتكلم عنها طوال الوقت . . ذات ليلة حلم نضال بكابوس. .

رأى صراخ وبصاق الناس. .

ضد الجنود...

ثم بدأ الناس في رمي الحصى . . قذف الحجارة . .

استمروا حتى مع تَصلب عضلاتهم، ووجع أذرعهم، ووهن أجسادهم. .

استمروا بلا هوادة. .

لكن ماكان يدعو للعجب، أنهم كلما رموا حجارة. .

كلما زاد عدد الجنود. .

واحدا تلو الآخر . .

حتى يظن المرء أنهم سيتزايدون إلى ما لا نهاية . .

كانوا جميعا بزيهم العسكري النظيف المهندم. . والرشاشات في أيديهم. .

والنظرة المتوعدة في أعينهم. .

ساعتها أدرك نضال أن الحل الوحيد لوقف تَضاعُفهم المستمر . .

هو التوقف عن رشق الحجارة. .

تَرَكَ الحجر يسقط من يده . .

وهرول نحو أبناء شعبه. . صارخا. . متوسلا أن يتوقفوا. .

لكن بلا جدوى. . بلا جدوى. .

استمروا. . كما لو أنهم صم وعمى . .

كما لو كانوا آلات. .

نضال أخذ يصرخ ويبكى من القهر . . بحث عن إبراهيم . .

لكنه لم يجده. .

لم يجده . .

ولما وجده، كان صراخه عميقاً يشق السماء...

إبراهيم كان يرقد على الأرض، ملطخ الوجه بالدماء. . كان . .

صريعا.

استيقظ نضال مفزوعا. . يضرب بيده في الهواء لاهثا. .

ظل متصلبا حتى عاد تنفسه منتظما . .

ثم نفض الغطاء عنه وترك الفراش. .

ذهب إلى الحمام ليغسل وجهه بالماء ونظر إلى نفسه في المرآة. .

كان وجهه مشدودا. . هالات سوداء تحت عينيه . . بشرته شاحبة . .

بدا ضعيفا ومريضا. .

تساءل. . ما الذي جعلني في هذه الحالة؟

ألم أكن دائما فيما مضى هادئا أعيش في سلام؟

أين ذهب نضال الذي أعرفه؟

أجابه صوت داخلی خافت . . صوت ملح . . كأنه ضجيج مزعج . .

لأنه كان يعرف الإجابة..

لكنها لم تكن الإجابة التي يريدها نضال . . لذا كتمها بداخله . .

وخرج من الحمام. .

في تلك اللحظة شعر وكأنه يختنق. .

فتناول سيجارة وخرج. .

تلك الليلة لم يكن في السماء إلا القمر..

النجوم غطتها سحب ثقيلة . .

كان الهواء باردا، ولم يكن هناك صوت..

سكون وسلام. .

رأى نضال خيالا من بعيد يقترب منه أكثر فأكثر . .

نزل درجات السلم، وذهب للقاء الشخص القادم نحوه، الذي بدا له شكل ام أة . .

ولما أضاء نور القمر وجهها. .

اكتشف أنها ريهام. .

كانت ترتدى بلوفر وينطلونا واسعا من الكتان. . كانت تعقد يداها على صدرها وكان شعرها أشعث. .

لم يرها نضال جميلة هكذا من قبل. .

تكلم إليها قبل أن ينظر في وجهها. . قبل أن يرى عينيها. .

_ريهام. . ماذا تفعلين هنا؟

_لم أستطع النوم يا نضال . . يحدث لي هذا أحيانا .

_أنا أيضـا . . تعرفين . . حلمت بكابوس فظيع . . وشـعرت كـأننى أختنق . . كان لابدأن أخرج قليلا لآخذ نفحة من الهواء .

ـ بل نفحة من النيكوتين . . أليس كذلك؟!

_حسنا. . لقد اضطربت من الكابوس . . أحتاج إلى التدخين لأريح أعصابى . أتعرفين . . التدخين يساعدنى على الاسترخاء . . أعلم أنه مضر ، لكن على أية حال فإنى أدخن منذ الثالثة عشرة . لكن . . لكن أكنت تبكين ؟

ـ لا . إنى . . لا . لم أبك . . أظن أن هناك شيئا دخل في عينى . . لكن لا يهمك . . الأمر بسيط ، أؤكد لك . أرأيت كم أن القمر جميل الليلة؟! خسارة أنه ليس هناك نجوم . أحب النجوم كثيراً .

ريهام من فضلك، قولى الحقيقة. أنت لا تثقين بى، أليس كذلك؟ بلى.. بلى.. لا تثقين بى. لكن لماذا؟ أنا.. أنا.. أنا أعتقد.. حسنا.. أن.. في الواقع أن.. أنني.. اعتقد أنني أحبك..

_لم أبك يا نضال. . أؤكد لك . . لا تقلق . . الأمر ليس مهما . . أنا . .

ريهام . . ريهام . . أراك وحيدة . . وحيدة جدا . كل . . كل مرة أنظر فيها إليك يكبر بداخلى هذا الاحتياج بأن أحميكى . . لا أدرى لماذا . . لكن . . حسنا . . مجرد رؤيتك تبكين تجعلنى أعانى . . ويسبب لقلبى عذابا لا يمكن التعبير عنه . . أريد أن تكونى سعيدة يا ريهام . . أ . . أرجوكى لا تبك . . آه . . تبالى . . ماذا قلت؟ هل أخطأت؟ لا . . ريهام . . لا تبك . . أرجوكى . . آه . . يا إلهى . . أنا . . أنا لا أريلك أن تتألى . ريهام . . أرجوكى . . ريهام . . انظرى في وجهى . . هيا . . ارفعى هاتين العينين الرائعتين . . انظرى لى . . انظرى في وجهى . . هيا . . ارفعى هاتين العينين الرائعتين . . انظرى أرجوك يا ريهام . . الأريدك أن تتألى . . لماذا تبكين؟

_آه يا نضال . . نضال . . يا إلهي . . نضال . . أنا . . أنا لاأنك . . لا . . لا . .

ريهام. . لماذا لا تقولين ما بك؟ ما المذى يشقل قلبك؟ لماذا لاتفضفضين عن نفسك معى؟ ألا تثقين بى؟

لا يا نضال . . أثق بك . . أنت . . أنت . . حين تتحدث معى أشعر بك قريبا منى . . قريبا جدا و . . آه يا نضال . . أبكى لأننى خائفة على جهاد . خائفة أن تخطفه منى الحرب . . إنه الآن كل ما بقى لى . . لم يعدلى أهل منذ كنت فى الشامنة . . هو كل أهلى . . لا أحتمل فكرة فقدانه . . لا أحتملها . . هو كل حياتى . . قد يبدو لك هذا سخيفا . . لكن حين كنت أذهب إلى المدرسة وأنا بعد صغيرة . . كانت أمى توصينى دائما به . . أن أحميه . . ألا أتركه أبدا وحده . . والآن . . أرى أمى تقول لى الشيء نفسه . . حتى الآن . حتى الآن . .

مكروه لن أموت ألما فحسب بل سأنكث بعهدى الذى قطعته لأمى . . لا أكبره إلا بعامين لكننى أراه طفلا . . لطالما اعتبرته هكذا . . أنت أيضا تعتبره طفلا يا نضال . هذا الحماس الذى يكنه للحياة . . تلك السذاجة . . إنه لا يبلغ إلا التاسعة عشرة من عمره . . أخاف أن أفقده . .

-آه يا ريهام. . أنا . . يا إلهى . . كم أفهم ما تعنيه . . أنا الرجل الوحيد الباقى . . أبى رحل إلى سوريا منذ سنوات وأمى وأختى تعتمدان على كليا . أشعر بمسئولية كبيرة نحوهما . . لكنى أخاف مشدة أن أفقدهما . .

حداده الحرب هي مصيبتنا . . لاحقت آباءنا وعذبتهم وهي الآن تلاحقنا . . وستلاحق أبناءنا . . ألا يوجد سبيل لوقف ذلك العنف؟ يا ربي . . ألا يوجد طريقة لوقف هؤلاء الصهاينة الظالمين؟ إنهم يقتلونا جميعا . . لماذا؟ لماذا لا يفعل سائر العالم شيئا؟ لماذا لا تتحرك الدول الأخرى؟ لو حاولوا فقط وقف تلك المجزرة . . لو . . لماذا لايساعدونا؟ لماذا يأخذون موقف المتفرجين يا نضال؟

- لأنهم هم أيضا قتلتنا يا ريهام . . مثلهم مثل الإسرائيليين . نحن وحدنا في تلك المعركة . . في هذه الحرب . . نحن شعب بلاسلام . . لكننا سنحظى بسلامنا بالقرب من الله . . من يقفون اليوم موقف المتفرجين لن يعرفوا الراحة يوم الحساب . . إنه العزاء الوحيد الذي أجده لنفسي . . الله معنا .

- نضال . . أراك رجلا عظيما . . أقَدِّرك كثيرا يا نضال . . شكرا لك . _أنا. . هذا لأجلك يا ريهام. . أنا أحبك . _أنا أيضا ما نضال . . أنا أيضا .

مر عام هادئ بلا أحداث تعكر صفو البلدة نسبيا . .

وفي ذلك العام تأصلت أواصر العلاقة بين نضال وإبراهيم وريهام وجهاد. .

أصبحوا كالإخوة. . كان كل منهم يبوح بنفسه للآخر دون حرج . .

ذات يوم. . بينما الرجال يتحدثون في الصالون والنساء بالمطبخ لتجهيز الطعام . . سمعوا انفجارات وصراخا . .

وكب إبراهيم خمارجها مع نضال. . ورأيا الناس يجمون صارخين. .

مذعورين دون أن يعرفوا إلى أين يذهبون . .

حاول إبراهيم أن يستوقف فتى يعرفه جيدا، ولكن الفتى استمر في العدو. .

جرى نضال نحو الشارع الرئيسي، وفهم سبب كل ذلك الرعب. .

وصلت الدبابات..

كانت الدبابات علامة الاحتلال..

والاحتلال كان يعني الموت. . العذاب. .

كان يعنى كثيرا من القتلى، وقليلا من الناجين. .

رأى إبراهيم طفلة صغيرة في حضن امرأة . . عيناها جاحظتان . . مستمرة في الصراخ . .

بكل نفس في صدرها. .

كانت تصرخ. .

تصرخ..

كان صراخا حادا . . يمزق قلبه . . ورأى هذا التعبير الذي يقطر فزعا . .

شعر بالألم. .

حتى أنه وقف متجمدا، إلى أن هزه نضال بعنف، وانطلق يجرى نحو البيت. .

تبعه إبراهيم. . وفي غضون لحظة حُلَّت الفوضي. .

قالا للآخرين أن يجروا خارج البيت بسرعة. . لأن الدبابات في الطريق. .

والدة نضال_كما لو كانت لا تدرك خطورة الوضع_أخذت تكدس الطعام في كيس . .

اضطر ابنها أن ينتزعه من يدها وأمرها بالخروج فورا. .

بعد قليل، كان جهاد وريهام وإبراهيم ونضال وإنجي ووالدتها يركضون مع الآخرين. . ومثلهم. . لا يعرفون إلى أين يتوجهون. .

كان المهم أن يجروا وحسب. .

للعثور على مكان يحتمون فيه. .

لما سمعوا صوت انفجارات خلفهم، فهموا أن الإسرائيليين بدءوا قصف البيوت . . انحدرت دمعة على خد والدة نضال . . التي لم تعد تقوى على الجرى . .

توقفت . .

نضال وإنجى صاحا بها لتسرع . . لتجرى . . لكنها لم تعد قادرة . .

في ذلك الوقت أوشك جندي مستل سلاحه على اللحاق بهم. . لم يبد عليه لحظتها النية في قتلهم. .

توسلا إليها. . توسلا أن تتحرك . .

لكنها قالت إن تلك أرضها . . وذلك بيتها . . فيه ولدت . .

وفيه ستموت. .

التفتت إلى الجندى. . صرخت فيه أنهم ليسوا إلا سفاحين. . أنهم دمروا حياة شعب بأكمله . . أنهم ظالمون . . أن الأجدر بهم أن يتركوهم في سلام . . أن يتركوهم يعيشون في البيوت القليلة التي بقيت لهم . .

ثم ارتكبت حماقة . . صرخت فيه . . أمك . . أين هي الآن؟! أيروق لك أن أرسل ابني خلفها حاملا رشاشا في يده؟ أيروق لك أن يطردها ابنى من بيتها وأن يهددها؟! الصراخ. . وعند ذلك صَوَّب الجندى سلاحه نحوها. . وفي لحظة خاطفة لم يكد يدركها أحد. . أطلق الرصاص. .

سقطت أم نضال على الأرض. . وصرخ نضال . . ذاك الصراخ الوحشى . . أرهب الجميع . .

ربما أكثر من صوت الرشاش. .

ارتمت إنجى على الأرض صارحة . . تحاول إنقاذ أمها . . قفز نضال على الجندى ونجح في طرح سلاحه بعيدا . . إبراهيم وجهاد ساعداه في ضرب الجندى . . الذي سقط أرضا . . متأثر ابضربات الأرجل والأيدى والأظافر . .

قبل أن يدركوا أنهم على وشك قتل الجندي. .

رأوا زملاءه يجرون نحوهم. .

ففروا هاربين . .

لكن إنجي لم ترد ترك جسد أمها. .

قال لها جهاد . . لقد ماتت . . ماتت . .

قالت لها ريهام . . لم يعد بيدنا شيء . .

وأخذ نضال يحضها. .إجر. . إنجى. . تعال. . إجر. . وهو يسحبها من ذراعها. .

لكنها أخذت تصرخ. . تصرخ. . كانت تائهة ، ولا تفهم أن بقاءها يعني موتها. . أطلق جنديان الرصاص. . وأصابا . .

أصابت طلقة إنجى. . والأخرى نضال . .

اندفع إبراهيم صارخا نحو نضال، وحمله على كتفه. .

أما جهاد فرفع إنجي . .

وعادا للجرى ومعهم ريهام التي كانت تجر رجلها . . منهكة . . ضائعة . . لاهثة . . متماسكة تارة . . وعلى حافة الجنون تارات . .

تصرخ برعب حقيقي. .

فجاعة الموقف طغت عليهم جميعا. .

لم تترك لهم مهربا..

كانوا مُرَوَّعين. .

مُروعين. .

تتدافع الطلقات من حولهم. . تكاد تمسهم . . تخطئهم ببضع سنتيمترات. . ورأوا الموت وجها لوجه . . بدا لهم أنه لن تكتب لهم النجاة . .

لن تكتب لهم النجاة . .

بل الموت..

الموت. .

فظيع وبلا رحمة . .

وكانوا خائفين منه . .

خائفين منه . .

وكانوا يعرفون أنهم لا يزالون بعد شبابا . .

شبابا ـ لسوء حظهم ـ مروعين . .

كانوا يعرفون أن لهم الحق في الحياة . .

وقد يبدو ذلك سخيفا، لكن إبراهيم كان يفكر . .

بينما كان يجرى مترنحا وقدماه تؤلمانه . .

بينما جسد نضال يتثاقل ويتعسر حمله. .

فَكُّر أن هذا ظلم. .

أنه لا يزال صغيرا على الموت. .

كان أمامه الكثير من الأشياء ليفعلها. .

الكثير من الناس ليقابلها . .

كان يجب أن يصير رجلا. .

كما أرادت أمه . . لم يكن يريد أن يموت . .

ليس بعد. .

أولا كان عليه أن يصير رجلا مثل والده. . لم يكن من العدل ألا يُمنح فرصة المحاولة. .

لم يكن من العدل. .

ولم يكن من العدل أن يلاحقهم هؤلاء الجنود ليقتلوهم. .

يقتلوهم . .

لماذا . . اللعنة . . لماذا؟

ماذا فعلوا لهؤ لاء الجنود؟

وبينما كان يفكر . . كان من غير المعقول أن يجد سبيلا للتفكير في موقف كهذا . .

غير معقول..

لا شك أنها كانت وسيلة للهرب من الاختناق خوفا. .

بينما كان يفكر برزت وسيلة النجاة أمامه . .

شاحنة مكدسة بالناس . . كانت تهم بالرحيل . . اللعنة . .

كان لابد أن يلحقوا بها . .

أخذوا يصربخون. .

انتظرونا. .

انتظرونا...

لكن الجنود كانوا خلفهم. .

وفضل السائق عدم المخاطرة بتعريض الشاحنة للقصف. .

فأدار العربة بيدين مرتعشتين. . وانطلق مسرعا. .

الجنود كانوا يقتربون. . كان يجب أن يتصرف بسرعة . .

حتى ولو كان قلبه يدمي . .

يدمى . .

لأنه تخلي عن هؤلاء الشباب المستنجدين الصارخين . .

الصارخين لينتظرهم. .

لكنه لم يكن قادرا على المجازفة بحياته، وحياة الذين تقلهم الشاحة. .

رحل..

رحل.

فكر إبراهيم للحظة أن يرتمي على الأرض. .

رأى نفسه يرتمي على الأرض. .

الآن انتهى كل شيء . .

انتهى . .

كان الموت يتربص بهم أيضا. .

لكن . .

لكن في اللحظة التي استسلم فيها للموت . .

توقفت أمامه صورة كالسراب. . كانت شاحنة أخرى. .

كانت آخر شاحنة تحمل الناس خارج البلدة . .

توقف الجنود عن إطلاق الرصاص على الشباب، وصوبوا نحو الشاحنة . .

كان ذلك جنونا، لكن السائق لم يرحل، بل برز من النافذة يهتف. .

هيايا أولاد . . أسرعوا! أسرعوا!

وإبراهيم الذي لم ير منذ برهة سوى الموت. .

أدرك أنه يجب أن يلحق بالشاحنة . .

لابدأن يصل . . جرى . . نظر إلى يمينه ورأى ريهام تجرى . . تلهث مقطوعة النفس . . وجهها ضارب إلى الزرقة والألم يُطل من عينها . .

نظر إلى يساره ورأى جهاد. . يحمل إنجى على كتفه . . ملامحه متجمدة . . نظرته مرتاعة . .

والآن كانت الشاحنة على بعد خطوات قليلة . . بعض الجهد. .

جهد إضافي . .

قفزت ريهام داخل الشاحنة . . ثم جاء دور جهاد . .

ولما هم إبراهيم بالقفز . .

سمع أزيزا وأحس بوخزة مفاجئة بذراعه. . صرخ من الألم. .

لكنه تشبث بقوة حاملا نضالا على كتفيه . .

وقفز هو الآخر . .

وصعد إلى الشاحنة. .

صعد إلى الشاحنة..

صعد إلى الشاحنة.

في اللحظة التي ركب فيها إبراهيم الشاحنة بجوار جهاد. . فقد وعيه . .

كان الألم الذي أحسه بذراعه بفعل رصاصة اخترقت جسده.

ظلت الرصاصة في جسده وأخذ ذراعه ينزف.

عاد إلى وعيه بعد قليل . . كان جهاد يهزه باكيا . .

إنجى لم تعد تتنفس. .

اللعنة . . ساعدني يا إبراهيم . . إنجى لا تتنفس . .

أحس إبراهيم بألم شنيع في ذراعه لكنه لم يتأوه . .

حين عرف ما حل بإنجى نسى ذراعه . .

وأخذ يتحسس نبض صديقته مذعورا . .

وكان رده دمعة تنحدر على خده . .

كانت الكراهية تظهر في عينيه . . تجمدت قسمات وجهه . . ضغط على فكيه . . وأخيرا تمتم وهو ينظر مباشرة في عيني جهاد . .

وهو ينظر في عيني جهاد . .

لقد ماتت . .

لقد ماتت .

دفن جهاد وجهه في شعر إنجي، بينما الشهقات تهزه وأخذ ظهره ينتفض بعنف . .

كانت ريهام أمامه مغمضة العينين . . كانت تحت تأثير الصدمة لا تشعر بما يحدث من حولها . . كانت تحدق في الدم. . كانت تحدق في جسد إنجي . .

دون أن تنبس. .

دون أن تتفوه بشيء . .

صرخ جهاد بالسائق قائلا بأن هناك جرحى، وأنه يلزم الذهاب إلى أقرب مستشفى . .

في ذلك الوقت كان إبراهيم قد مدد نضالا وفحص الجرح الموجود أعلى ساقه. .

فقد نضال الوعي. . .

لكن إبراهيم أدرك أنه سينجو، إن أمكن إيقاف نزيفه . .

ولما تذكر جسد والدة نضال مسجى على الأرض وحده هناك. .

والدم الذي كان يسيل متدفقا . .

شعر بغصة في حلقه. .

وكادت الدموع أن تغالبه. . فأخذ يتنفس بعمق محاولا تهدئة فسه. .

ولما نظر من جديد إلى ريهام . . لاحظ أنها ما زالت تتنفس بصعوبة ، وأن عينيها ما زالتا مغمضتين . .

نادي إبراهيم على جهاد. .

جهاد! . . انظر أختك . . إن بها شيئا يا جهاد . . جهاد عيناه تلمعان . . توقف عن البكاء على جسد إنجى وأخذ يحاول النظر في العينين

عيني أخته. .

ولما رآها تتنفس بصعوبة . .

قال . .

يا إلهي. . إبراهيم. . ريهام مصابة بالربو . . اللعنة . . إبراهيم. . لابد أن نأخذها إلى المستشفى فو را . .

إبراهيم. . افعل شيئا . .

كان شيئا فظيعا. .

فظيعا. .

فإبراهيم لم يكن في الواقع قادرا على عمل شيء. .

أى شىء . .

تماما مثلما لم يستطع فعل شيء لأم وأخت نضال . .

كما لم يستطع فعل شيء لأبيه نفسه . .

كما لم يستطع فعل شيء لكل من قتلوا في تلك الحرب. .

وكما أنه لن يستطيع أبدا فعل أي شيء. .

اللهم سوى أن يظل متفرجا .

بعد حوالى عشر دقائق . . أطول عشر دقائق في حياة إبراهيم . .

توقفت الشاحنة. . وبدأ الناس الذين كانوا بداخلها متجمدين في أماكنهم. . صامتين طوال الطريق . .

بدءوا في النزول . . لم يكن أحد ينظر في وجه أحد . .

عَجَّل إبراهيم بالنزول حاملا نضالا وهو منهك، بينما حمل جهاد جثمان إنجي. .

تبعتهم ريهام بلا وعي. .

وقفز السائق بخفة أسفل المركبة، رغم أنه كان_كما لاحظ إبراهيم على الفور_رجلا كبيرا ضخما مفتول العضلات. .

لحق الرجل بإبراهيم، ورفع عنه نضالا بلا أدنى عناء. . وقال لهم اتبعونى. . يجب أن نسرع. .

دخل المستشفى واجتاز ممرا. .

كان المستشفى في قمة الفوضى والممرضات تجرين في كل اتجاه . .

كانت هناك أصوات صراخ مستمر . . كانت أصوات نساء فقدن أبناءهن . . أزواجهن . . آباءهن . .

توقف الرجل أمام أحد الأبواب ودخل دون أن يقرع الباب. . وبالداخل كان هناك فتي.

قال له السائق . . رامي . . أسرع . . إنها حالات خطرة . .

اختفی الفتی رامی خلف باب آخر ، ولما عاد کان بصحبته طبیبان . .

أخذوا إنجى وتحققوا من وفاتها، وغطوا وجهها. .

أرسلوا نضالا على الفور إلى غرفة العمليات، وأخذ جهاد يضم ريهام بقوة، فقد كانت لا تزال أزمة الربو تداهمها. .

واهتمت بها طبيبة، بينما أخذ طبيب آخر يفحص ذراع إبراهيم. يعاونه في ذلك رامي. . وشرح له أنه يلزم وقف النزيف قبل الشروع في أي شيء آخر . . وأنه لابد من استخراج الرصاصة . . الأمر الذي سيكون مؤلما . . ولكنه لن يستغرق طويلا . .

أخذ إبراهيم يحدق مرتعدا - في الممرض . . رامي كان صغيرا ونحيلا بقدر ماكان سائق الشاحنة كبيرا وضخما . . كان له شعر أسود أشعث ووجه وديع . . يبدو لطيفا . . كان حول عنقه عقدا معلقا فيه صليبا ضخما من الفضة . . كان واضحا أنه مسيحي .

راق رامى لإبراهيم منذ اللحظة الأولى ، كما راق له السائق الذى أشار له بالاقتراب ، بينما كان ذراعه يعالج . قال له إنه سيمتن له مدى الحياة ؛ لأنه أنقذهم ؛ وأن الله سيجازيه خيرا . . ثم سأله عن اسمه . . وعرف أن اسمه «محمد» ، فشكره مرة أخرى قبل أن تغالبه الدموع والآلام ثانية .

هذا فظیع یا رامی، لا یسعك أن تتخیل ما عاناه هؤلاء الصبیة.. أنا لم أحد قادرا.. لم أحد قادرا.. لم أحد قادرا على رؤية هذه الحرب، وهي تقتل شعبي يا رامي.. أريد أن أصنع شيئا.. لا يمكننا أن نقف مكتوفي الأيدى بينما هم يقتلونهم جميعا..

أعرف يا محمد. هذه المناظر أراها كل يوم فى المستشفى . . وحين أعود لبيتى فكل ليبالى مليئة بالكوابيس . هؤلاء الإسرائيليون متوحشون . . مبجب أن يُقتلوا عن آخرهم . . ليس فى قلوبهم أية شفقة بنا . لكن يا محمد ، يجب أن نتحافظ على رباطة

جائمنا . . حتى الألم لا يجب أن ينال منا . . يجب أن نهزمهم بالتحكم في أنفسنا . . انظر عرفات . . ليس بمقدوره عمل شيء . . يقول شيئا وشعبه يفعل شيئا آخر . . بالاعتداءات والانفجارات لن نصل أبدا للسلام .

ـ لا يهمنى السلام . . السلام مستحيل أن يتحقق الآن! أيها الأبله . . ماذا تظن؟ إنهم ربحا يريدون التنازل عن شريط من الأرض! إنهم يريدون إبادتنا كلنا . . تلك هى الحقيقة . . قد أشحر بالأسف لعرفات . . لكن لابدلى أن أفعل شيئا . اليهود آمنون فى بيوتهم ، ونحن فى المقابل عندنا مستشفيات تمتلئ بأناس يموتون وبقرى تدمر . . بشيوخ يُضربون ونساء تُغتصبن . . لا يمكننا السماح للوضع بالاستمرار على هذا النحو! اسمع يا رامى . لقد اتخذت قرارا . لابدأن أفعل شيئا! أم أننى لا أستطيع الاعتماد عليك؟

_محمد. . بالطبع يمكنك الاعتماد على دائما!

أنت صديق بحق يا رامى . . يا أماه . . كان يجب أن تكون حاضرا حين انتشلت هؤلاء الفتيان المساكين . كانوا الوحيدين الباقين فى البلدة . . كان الجميع قد ركب . . لكن الشاحنة الأخرى التى كان يقودها سامى لم تتظرهم . لم يستطع . . أعنى . . إننى لا ألوم سامى على هذا . . ففى الواقع كان سيمرض كل الراكبين للخطر . . أتفهم . . كانت مجازفة كبيرة . . لكن حين رفع أحدهم ناظريه . . ذلك الشاب الذي يدعى إبراهيم . . نعم . . لل رفع عينيه . . . رأيت كل البأس . . كل الحوف . . كل العجر الذي نتج عن تلك الحرب . . رأيت في عينيه كل إخوتنا الفلسطينيين ولم يطاوعنى قلبي على الرحيل . . كنت سأعاني عذاب الضمير مدى الحياة . . قلبي على الرحيل . . كنت سأعاني عذاب الضمير مدى الحياة . .

كان سيؤرقنى ذلك فى كل لحظة . لا شك أنهم أمطروا شاحنتى بوابل من الرصاص . . وكادوا أن يتلفوا الإطارات . . لكن فى النهاية كان هؤلاء الخمسة قد ركبوا . . أتفهم؟ حسنا . . ماتت واحدة منهم . . الله يعلم كم أحزننى ذلك! فتاة شابة . . لكن لم يكن بيدنا شىء . . هناك واحدة أخرى لا تزال تحت تأثير الصدمة . . وواحد لا يكف عن البكاء . أما الآخر . . أظن أن اسمه نضال . . فلا يزال بغرفة العمليات . يا ربى . . أعتقد أننى لن أحتمل المزيد من الذهاب والإياب بين القرى والمستشفى .

ـ لكنك يا محمد تقوم بعمل جليل. . أنت تساعد أناسا كثيرين . . أناسا يواجهون الموت وجها لوجه . . مثلما حدث اليوم . كيف تفكر في التوقف؟

_يصلنا قبتلى كل يوم يا رامى . . قبتلى فوقهم قبتلى ! أعدادهم مهولة . . مهولة . . ثم ترى أقاربهم وهم يبكون ويصرخون . . والدم يا رامى . . لم أعد قادرا على غسل الدم من فوق شاحتى . . أتفهم؟ أحلم بالكوابيس كل ليلة! أشعر وكأنى أموت . . لخظة أن أرى تلك العيون الجاحظة . . تلك الوجوه الشاحبة و . . لماذا يفعلون بنا ذلك؟ إنهم شعب ملعون . . قاسوا كثيرا في الماضى ؛ لكنهم الآن يريدون أن ندفع ثمن ما حدث لهم! أعنى أنهم اضطهدوا طويلا . . لماذا لا يبحثون عن بعض السلام الآن؟ لماذا يستمرون في تلطيخ أيدهم بالدم؟

ـ لا أدرى يا محمد. لا أدرى . سيعاقبهم الله بما يستحقونه . . سيعطيهم الجزاء العادل . لقد فقدت أسرتى في تلك الحرب . لم يعد يبق لي شيء . . منذ ولادتى . رأيت

الرصاص يحطم نوافذ كنيستنا أثناء حضورنا للقداس . . رأيت المصاص يحطم نوافذ كنيستنا أثناء حضورنا للقداس . . رأيت المصلبن يرتمون أرضا ويصرخون فزعا . . رأيت درجات مدرسة ابتدائية ملطخة بالدماء والسبورات ملوثة وبلاطات أرضيتها لن تزول عنها بقع الدم أبدا . رأيت جنودا في العشرين من عمرهم يضربون الشيوخ وهم يتضاحكون . . ورأيت . . يا إلهي . . بالأمس حدث لي شيء فظيع . .

_ماذا يا رامي؟

_ وأنا قادم إلى المستشفى . . كنت راكبا سيارة أجرة . . وكانت تسبقنا سيارة إسعاف. وفي لحظة ما أوقف بعض الجنود الإسرائيليين حركة المرور. . وصنعوا حاجزا وبدءوا يفحصون كل الأوراق . . تخيل؟ واحدا واحدا! قالوا إنهم يبحشون عن إرهابيين . . ومر الوقت بطيئا. . واغتاظ سائق الأجرة . . وصدرت صرخة من سيارة الإسعاف. . فانتابني الخوف ونزلت من السيارة. . وذهبت لاستطلاع الأمر . . فقال لي سائق الإسعاف _ وكان فتي شابا _ إنه ينقل امرأة حامل . . كانت تتألم . . أتفهم؟! كان يجب أن تذهب للمستشفى لتضع طفلها. جريت إلى الجنود، وتوسلت إليهم أن يتركونا نمر. قلت لهم إن هناك امرأة حبلي. . كانت على وشك الوضع، وأنها تموت ألما. أتعرف بما أجابني هذا الجندي. . لعنة الله عليه. . أتعرف بما أجابني؟! قال لي . . لتَمُت. . هذا ما قاله لي . . بوجه بارد. . بقلب مجرد من المشاعر . . بيرود ولا مبالاة . . لتَمت. جريت لرؤية المرأة. . كان معها بالداخل ممرضان يقولان لها أن تأخذ أنفاسا طويلة ومنتظمة . . لكنها كانت تصرخ . . كانت ۸٧

_ماذا حل بتلك المرأة؟ ماذا حل بها يا رامى؟

يا إلهى . . صمدت يا محمد لمدة ساعة . . صارخة . . باكية . . ثم بدأت تنزف . . تنزف كثيرا . . ثم ماتت بعد أن صفى كل دمها . . ماتت و الطفل أيضا مات . . ولم أستطع فعل شيء ، بينما كانت المرأة تشد على يدى . . يائسة . . و تنظر إلى بتوسل قائلة . . خذوني إلى المستشفى . . ولم . . لم آخذها .

لابد أن ذلك كان رهيبا يا رامى . لا أقوى على تصديق أن هؤلاء السفلة يفلتون بفعلتهم هكذا كل مرة . . يوقفون المرور كما يحلو لهم، ويتركون امرأة حبلي للموت . السفلة . . سيدفعون الثمن .

ـلم أعد أؤمن بمستقبل لنا نحن الفلسطينيين. سيبيـدوننا جميعـا لا محالة . .

-عفوا . . عفوا . . أر . . أريد أن أعرف . . أين نضال؟

- آه. . لقد تعافيت! مرحى . . أنا محمد . . سائق الشاحنة . أنا سعيد أن أراك في حال أفضل .

- نضال . . أين نضال؟ وأخته إنجى؟ أين هما؟ أين وضعتم أصحابي؟ وأخى . . أخى جهاد . . وإبراهيم؟

_اطمئنی . . اطمئنی . . قبل کل شیء . . ما اسمك؟ _ریهام . . اسمی ریهام .

_حسنا. . إبراهيم وجهاد موجودان في تلك الحجرة . . جهاد في أحسن حال . . وإبراهيم لم يُصب إلا بجرح في ذراعه . وهناك من يرعاهما الآن . . لا تقلقي .

_وإنجى! أين هي؟ كيف حالها؟

_حسنا. . رامي . . إنجي . . أين . . رامي قل لها أنت . .

_من هي إنجي؟ هل هي أختك؟

_كلا. . إنها صديقتي . لكن أين هي؟ وأين نضال؟ هما بخير ، أليس كذلك؟ هما على قيد الحياة ا أرجوكما . أنت أو صديقك . . قولا لى أين نضال وإنجى . ماذا بهما؟ . .

_حسنا. . نضال بغرفة العمليات ، لكنه سينجو بإذن الله . نأمل أن يصمد . . لكن إنجى . . حسنا إنجى . . لم يكن من المكن عمل أى شيء لأجلها . . كانت قد فقدت كمية ضخمة من الدم . . ولما وصلت هنا كانت قد . . كانت قد . .

_ماتت؟ ماتت؟ آه. . يا إلهى . . إنجى! إنجى . . آه يا إلهى . . إنجى! _محمد . . أسندها . أعتقد أنها ستفقد وعيها . كم أنا غبى! ساعدني . . لنحملها إلى الغرفة .

- -احضر كوبا من الماء ومُهدئا. . ستَفيق في حالة من التخبط وستصاب في الغالب بنوبة من الهستريا. ساعدني.
 - ـ حسنا يا رامي . . لكن انتظر بجانبها . سأعود في الحال .
- يا لها من مسكينة . انظر في أية حالة هي . . الله وحده يعلم ما مرت به . كم أود أن أساعلك يا ريهام ، وأن أقول لك إن إنجى ما زالت حية وبخير! كم أود لو كنت أستطيع ذلك! لكنى لا أستطيع . . لا أستطيع . .
 - ـ حسنا يا رامي. . لنرفعها . . نعم، هكذا . . هزها و . .
- _ آآآه! إنجى! يا الله! إنجى . . نض_ ال . . يا الله! لماذا؟ لماذا؟! أرجوكم . . أخبرونى أنها ما زالت حية! قولوا لى إنها بخير! أرجوكم . . لا يمكن أن يكون ذلك صحيحا . . لا يمكن أن تكون قد ماتت! أرجوكم . . أنقذوها! آآآه . . لماذا؟ يا إلهى . . يا إلهى . .
 - _أمسكها يا محمد. اهدئي يا ريهام. . اهدئي . .
 - ـ لا . . لا . . اتركسانى . . أريد أن أمسوت! أريد أن أمسوت! لا . . اتركنى . . اتركنى . .
- -أمسكها جيدا. . هكذا. . أمسكها جيدا. لا تتحركي . . سأحقنك عهدئ . .
 - لا ا اتركوني ! أريد أن أموت ! أريد أن أموت ! آآآه !
- إنها مهتاجة جدا! أمسكها جيدا! هيا يا ريهام . . اهدئي . . كل شيء على ما يرام . . اهدئي . .

_ نعم يا ريهام لا تقلقى . . هيا . . كل شىء على ما يرام . . كل شىء على ما يرام . .

_أخيرا قد نامت. يا للشقاء. . كانت كالمجنونة . لابد أنها صُدمت . .

_ الموت دائما صدمة يا محمد. . حتى لو رأيناه كل يوم . .

_ حين تفيق سيصيبها صداع فظيع، وحمل ثقيل على القلب . . كم أتألم لحالها يا رامي!

إبراهيم كان منهارا. .

منهارا..

كان ينظر بشراسة للذين يعالجونه . . كما لو كانوا هم المسؤلون عن كل مآسيه . .

كان يتأرجح بين حالات من البلبلة والألم

وأخرى من الوعى الشديد. . كان يسأل فيها عن أخبار أصدقائه . .

ويُجيبه المعالجون في كل مرة بأنهم جميعا بخير . .

رغم علمهم بأن إنجى قد ماتت. .

وأنهم يكذبون. .

يكذبون. .

- أتساءل أحيانا إن كنا سنخرج يوما من تلك الحرب. . أعنى . . كم من الوقت مر علينا نقاتل! . . آباؤنا وأجدادنا وآباء أجدادنا لم يفعلوا شيئا آخر . . والآن نحن نفعل الشيء نفسه . . ومن يضمن لنا أن أبناءنا وأحفادنا لن يفعلوه أيضا! لو توقفنا يوما عن القتال وعن الاشتباك مع الجنود الذين يدخلون قُرانا؟ لو توقفنا يوما عن اللجوء للعنف ماذا سيفعلون؟ أسيقتلوننا أيضا؟ أسيستمرون في التقدم بالدبابات وبالرشاشات؟ هل سيتوقفون عن احتلال أراضينا؟

- يا جهاد . . كل هذا كلام جميل ، لكنهم ليست عندهم النية في الانسحاب . . ولا تتخيل أنه يروق لنا القتال والمجازفة بأرواحنا كل يوم ، ولكننا نقوم فقط بالدفاع عن أنفسنا يا جهاد . . أو على الأقل الدفاع عما بقى لنا . . قطعة بائسة من الأرض . . لو توقفنا سيأخذونها مناهى الأخرى . . لم يحترموا الاتفاقيات قط . . أبدا . . بل سعوا دائما إلى احتلال الأراضي . . أراضينا وأراضى لبنان . . كما حدث في ١٩٧٨ . يريدون الاستحواذ على ما يقدرون عليه . . ليقيموا إسرائيل العظمى . . أرض الميعاد . .

- لكننا لا يمكننا الاستسلام للعنف! لقد ضقت ذرعا برؤية الناس يموتون، وبالحياة في حالة حرب منذ ولدت. . كل يوم في حياتي! أريد أن أموت في بيتي . . في التسعين من عمرى . . أثناء نومي . . لا في العشرين بطلقة رصاص! كم نشعر بالراحة في تلك اللحظات النادرة من الهدوء! كما لو كان كل شيء قد انتهى .

- تتكلم هكذا لأنك في العشرين من عمرك يا جهاد . . وتشعر بالشباب والراحة ، وتظن أن مثل هذا السلام يكفيك . لكن إن آجلا أم عاجلا ستضطر إلى فتح عينيك يا جهاد . . وأؤكد لك أنه يجدر

إحساس كان مجهو لا تماما بالنسبة له، بما أنه لم يجربه من قبل . . فالأب ليس بأسرة . .

اللهم إلا إذا كان يغمرك بالرعاية والحنان، ويحرص على أن يلعب دور الأب والأم معا. .

أب مثل والد إبراهيم لم يكن سوى أب فقط . .

وليس أسرة . .

وهكذا كان جلوسه هناك . . مع أناس يحبونه . . وقدرته على السكوت دون سماع صمت الوحدة الموحش . . لكنه هنا يسمع أصواتا . .

أصواتا لها أجراس مختلفة . . نبرات متغايرة في كل مرة . . أسخاص متباينون . . خليط من الأشخاص يستطيع العيش معهم مدى الحياة . .

كان يشعر آنذاك أنه إنسان محظوظ. .

شاب يعيش تحت سقف حقيقي . . يشعر بالشبع، وبالقدرة على الضحك قليلا . .

فى الوقت الذى كان فيه مواطنوه. . عدد كبير من مواطنيه بلا مأوى. .

بلا رغبة في الضحك . . بل أسوأ من ذلك . . بلا أسرة . .

كان يشعر أنه محظوظ . . كان يشعر أنه محظوظ . .

حين كان يتكلم مع أصدقائه. .

بك أن تفعل ذلك فى أقرب وقت ممكن. افعله الآن. وابدأ فى مساعدة إخوانك. لا . خذ كلامى على محمل الجد. أترى أن أصحاب المحادثات السلمية قد فعلوا شيئا ملموسا لأجلنا؟ إنه لشىء محزن أن أقول ذلك . لكن الطريقة الوحيدة لإنقاذنا الآن هى العنف . أتعرف ما يثير حنقى؟ تلك البلاد!! البلاد الأوروبية . التي تنتقد انتفاضتنا ، لكنها فى الوقت ذاته لا تقدم لنا أى عون . إن لم تكن الحرب أفضل حل فلم لا يفعلون شيئا ملموسا؟ الحقيقة أن الحرب تكون الطريق الخطأ فقط حين يكون ذلك فى صالحهم . . هكذا، تلك هى الحقيقة . إبراهيم ألن تقول شيئا؟

- أنا أريد الانتصار . . لا شيئا آخر . . أن أعيش في هدوء في بيتى دون أن أخشى أن يأتى أحدهم من يوم لأخر ليطالب بأرضى . لو كان العنف هو الحل الوحيد الباقى للوصول للسلام . . فيجب تقبله والسعى للأفضل . . كما يجب احترام العدل . . لأنه كما كان يقول أبي دائما . . لا سد . .

ـ لا ســــلام بدون عـــدل. تعــيـــد ذلك على كل يوم يا إبراهيم، منذ تعارفنا. . مؤكد أن والدك كان رجلا صالحا.

ـنعم. . كان كذلك . لم يكن يفكر إلا في الدين . . في الله . . في الله . . في الأعمال الحسنة . . وفي السلام . كان رجلا مستقيما ، لكن ذلك لم يكن كافيا . . لم يكن كافيا ! لكم وددت أن يكون الإيمان كافيا . . لكم وددت ! حين يأتون إلى بيتك ليقتلوك . . ليأخذوا حاجياتك ، فهم لا يحصون عدد المصاحف التي تملكها أو المساجد التي تصلى بها . . الإيمان لا يكفي .

- لكن لم تقولون ذلك؟ يجب أن نتحلى بالإيمان بالله . . يجب أن نؤمن به . إنه يوصينا بتقبل المحن والصبر عليها . . ونتقبل نعمه ونحمده لأجلها . . إنه يقول لنا إن الذين يتألمون سيظلهم تحت جناحه . سنتعذب في الأرض وسيرد إلينا حقنا عمن ظلمونا يوم الحساب . سنعاني على الأرض وسننعم في جنات الله . فلماذا لا نؤمن بذلك . . ونقرر أن نصبح نحن أيضا من الظالمين؟ أطفالنا الذين يموتون هم مثل أطفالهم الذين يموتون . . نفوس بريثة! لماذا نرغب إذا في قتلهم؟

-اسمع يا جهاد. . كل هذا منتهى النبل . . لكنهم لا يفكرون بالمثل . . هم لا يتساءلون عما إذا كان ربهم يقبل العنف . لقد قاسُوا . . واضطهدوا . . وبدلا من أن يتعلموا من ذلك . . بدلا من أن يرحمونا لأنهم يعرفون معنى الألم . . يذيقوننا نفس الآلام التي ذاقوها . بدلا من البحث عن السلام . . لنا . . ولهم . . يأتون لاحتلال أراضينا . . ويطلقون النار على ضحاياهم دون حتى النظر إلى وجوههم . لو رأيت يهوديا وجها لوجه سأسأله: ألا تخاف الله ؟ وأرغب حقا في سماع رده . .

ـ نضال . . أعرف أنك على حق إلى حدما . . إنهم لا يتوانون لحظة على أن يفعلوا بنا ما فُعل بهم . . وهم لا يشفقون على شعب نسى بسببهم معنى السلام . . لكنك تعرف أفضل منى أنهم يُمسكون بكل الكروت الرابحة . فكيف بنا نأمل أننا في النهاية _ إذا ما كان هناك نهاية أصلا _ سنكون المنتصرين؟ ألا يجدر بنا تحاشى المزيد من القتلى . . والدمار . . ومحاولة استئناف الحوار؟

-جهاد. . لقد حاولنا الحوار ألف مرة . . وألف مرة نقيضوا

الاتفاقيات.. فعلوا ما أرادوا مُتَحدّين العالم كله . لو كان هناك حل آخر لكنا حاولناه . . لكن كن متأكدا . . ما من حل آخر . تسألنى كيف يمكننا الانتصار؟ وأنا أجيبك بالإيمان . . وعلم التخلى أبدا عن الإيمان . . ولا لحظة واحدة . . حتى ولو قهرتنا المعاناة . . وحتى لو يقينا وحدنا في المحنة . لا يجب أن يكون لدينا هدف آخر . . سوى الدفاع عما غلك . . عن أرضنا . كان أبي يقول لى دائما حتى اليوم الأخير أن أتحلى بالإيمان وألا أستسلم أبدا . إن العودة إلى الحوار الآن تعنى الاستسلام لإرادتهم والانصياع لتعسفهم . نضال . . أنا أيضا لا أريد العنف . . فإن وجدت سبيلا آخر دلّني عليه . . فأنا مستعد لاتباعه على الفور .

_أنا. . لا يا إبراهيم، أنا أيضا لا أملك سبيلا آخر . لا أعرف . . يحدث أن تصحو يوما . . ترى الشمس . . يبدو لك كل شيء جميلا وتتساءل : لماذا نفسد كل هذا؟

_ أنا أيضا . . هذا الصباح . . هه، انتظروا لحظة! أتسمعون؟ ما هذه الطلقات؟ أتسمعون؟

_صححيح! لا أريد حتى أن أفكر في الأمر. تعال يا نضال. . لنسرع . . لنستطلم الأمر .

وانتهى كل شيء في لحظة..

الهدوء . . النقاش . .

الحالة العادية . .

الحالة العادية التي تؤدى إلى الإرهاق . .

کل شيء انتهي . .

والآن..

الآن كان هناك . . يرقد في تلك الغرفة بالمستشفى . .

تحت ملاءات سضاء نظيفة . .

وأسرَّة أخرى بجانبه، وأناس آخرون أنتزعت منهم الحياة. .

تتداخله الأفكار والأحاسيس. .

تقلقله..

تحمله ثمن ما حدث. .

لم يستطع أن يذرف دمعة واحدة. .

على..

إنجى وأمها...

شَعر بغُصة في حلقه. . اضطراب في معدته. .

لكنه لم يقدر على البكاء..

لكنه تمنى ذلك. .

لكنه تمنى ذلك. .

لا شك أن والده كان ليفخر به. .

ومن حقيقة أنه لم يبك . .

لكن لم يعن ذلك شيئا لإبراهيم. . في تلك اللحظة . .

لم يعن له شيئا أن يكون رجلاً. .

كان يريد فقط أن يجد ركنا. . في خبايا آلامه . .

ركنا آمنا جدا، وفي نفس الوقت خطرا للغاية . .

ركنا صغيرا مريحا. .

يقبع فيه إلى الأبد..

يعاني فيه إلى الأبد. .

وربما. . يموت فيه أيضا .

ظلوا بالمستشفى لمدة أسبوع . .

تمت عملية نضال على وجه حسن. .

لم يبق له من الحادثة سوى ندبة صغيرة. .

والألم الفظيع . .

الفظيع . .

المتعذر علاجه

الظلم..

المتعذر علاجه. .

ألم يشغل حاليا كل جزء من حياته . .

فى لحظة واحدة وجد نفسه بلا أم. . بلا أخت . . بلا أسرة. . كيف سيحمل الخبر لو الده؟

إنه في الوقت الذي كان يعمل فيه بلا هوادة في سوريا. . قُتلت زوجته وابنته على يدجنود إسرائيليين . .

إن أسرتهما اختفت من الوجود!

وكيف سيتصرف هو؟ نضال . كيف سيعيش بدون إنجى . . بدون لطفها وحنانها . . وطريقتها في العيش بفرح وبعدم اكتراث . . بدون مداعباتها وملاطفاتها . . بدون متافاتها المرحة . . في الصباح . . عندما كانت توقظه من النوم . . بدون مسائدتها . . صدقها . . إخلاصها . . بدون مساعدتها في الأوقات العصيبة . . بدون "بلوفراتها" التي كانت تحسن غزلها . . بدون حبها للحياة . بدون عينيها الواسعتين العميقتين . . بدون ابتساماتها الناعمة المتسامحة . . بدون رقة تعاملها . . وذوقها . . ورصانتها . وفهمها لمعلى صغر سنها . . مع أنه حتى لم يكن يبذل جهدا لشرح أو فعل أي شيء؟

كيف سيعيش بدونها؟!

وكيف سيتقبل فكرة فقدان أمه؟!

المرأة التى جلبته إلى الدنيا والتى منذ ذلك اليوم رعته وأحبته بلا حدود، التى كرست حياتها لتلبية كل احتياجاته، التى طالما قدرته لشخصه، التى كانت تقول له كل صباح - حين كان يهم بالخروج - أن يغطى نفسه جيدا، التى كانت فى شهر رمضان تنتظره دون طعام حتى بعد صلاة المغرب؛ لأنها كانت تصر على ألا تتركه يأكل وحده في لحظة جميلة مثل وقت الإفطار، التي خافت عليه في كل لحظة من تلك الحرب اللعينة الظالمة. .

نضال كان عليه المواصلة..

كان عليه الاستمرار في الحياة حتى بدون أهم شخصين في حياته كلها. .

كيف يمكن ذلك؟!

ريهـام كـانت قـريبـة جـدا منه. . وكـانت قـد تعـافت من الصـدمـة وكانت تحسن دفن ألمها في خبايا قلبها. .

حتى تبدو قوية ومهيأة لمساندة نضال. .

وكانت تقضى لياليها تبكى حتى يصيبها الإعياء وحيدة في صقيع حجرتها. .

إبراهيم كان مقلا جدا في كلامه . . دائم الانعزال . .

جهاد كان يحاول الحفاظ على وحدة المجموعة؛ لأنه بعد الحادث كان قد خبر الموت عن قرب. .

واستنشق رائحته. .

ورأى لونه. .

ولهذا كان يشعر بحاجة شديدة للحب تصل إلى حد الألم. .

محمد ورامي كانا يقضيان أوقاتا طويلة مع الأصدقاء الأربعة . .

وانتهى بهما الأمر بأن أحباهم . .

وشعرا بنفسيهما قريبين منهم . .

لأن الأربعة كانوا قد فقدوا أسرهم . . من قبل .

والأربعة كانوا قد عرفوا معنى الألم. . من قبل .

إبراهيم أدرك أنهم بدءوا يشكلون مجموعة صغيرة. .

وهذا جعله يفكر . .

هل يوحد الألم بين الناس؟ هل يفعل ذلك حقا؟

كان عنده انطباع أن الألم يشده بلا رحمة . .

إلى الفراغ وغياهب الوحدة. .

وأحس أنه لن يقوى على فعل شيء. . ولن يتمكن من ذلك أبدا. .

كان يتابعهم ويرى البسمات الصغيرة المطمئنة التي كانوا يتبادلونها. .

ليعزوا أنفسهم . . ليبعثوا شجاعتهم . .

لينجحوا في أن يصيروا أقوياء . . .

كلهم معا. .

وذات ليلة حدث ذلك. . حلم بأبيه. .

غط سريعا في النوم . . تلك الليلة . . نوما مضطربا . . حتى أن رأى نفسه مرتجفا . . ملطخا بالدماء . . ملقى على الأرض . .

ورفع نفسه ونظر حوله باحثا عن أثر للحياة . .

لكن لم يكن هناك شيء . .

ولم يكن هناك أحد. .

كانت رؤية غير مفهومة للفراغ. . للعدم. .

الذي يكتنفه. .

كانت نهاية أو بداية . .

لم يتوصل إلى صبغ هذا الموقف بلون . .

أبيض أم أسود؟

ثم حضر..

كان يمشى بطريقته الخاصة . . ماثلا قليلا إلى اليمين . . ذراعاه مفرودتان بطول قامته . . نظرته مستقيمة . . رأسه مرفوع . . خطواته ضيقة . . لا نهائية . .

كان يرتدي جلبابه الأزرق المعتاد وتحمل قسماته تعبيرا جادا.

لم يبتسم أبدا. .

كم مرة رآه إبراهيم فيها يبتسم؟ مرة . . مرتين؟

وبهذا التعبير الجاد الذي يبدو مُنذرا بالخطر بعض الشيء . . تقدم أكثر فأكثر . مُثبّنا نظره عليه . . ولما اقترب بشكل كاف . .

مد يده. . مدها ببطء. . بحركة مهيبة وودودة في آن واحد. .

لم يتردد إبراهيم لحظة ومد له يده. . وتبعه. .

مشيا حول الفراغ . .

أحاطا به . . ملآه . . اتحدا به . .

صارا جوهر الحلم . .

وفي تلك اللحظة أحس إبراهيم بالحياة تدب فيه ولم يعديشعر أن ذلك حلم . .

وفي تلك اللحظة . .

ودون أن يحول نظره عنه. .

قال شيئا. .

شيئا واحدا. .

لكنه كان يعنى الكثير بالنسبة لإبراهيم

کان کل شیء. .

قال. . وبهدوء شديد وبصوت يكاد يكون غير مسموع . .

لست وحدك.

كان محمد يعيش في بيت صغير قريب من المستشفى. . وفي اليوم الذي سمحوا لهم بالخروج أخذهم في شاحنته إلى بيته . . وأدخلهم وقال لهم أن يتصرفوا كما لو كان بيتهم . . لأنه كان بيتهم .

حضر رامي لرؤيتهم ساعة الغداء. . وجهزت ريهام أرزا وبازلاء

بالصلصة . . كان الطعام لذيذا جدا . . ومر الوقت في الحديث والنقاش . . بلا حيوية . . ولا فرح . . لكن كان هناك شعور بالتضامن بينهم .

نضال الذي كان دائم الضحك والتهريج مع ريهام والذي لم يكن ليضيع فرصة للسخرية منها بسبب طيشها . . كان صامتا مكتفيا بمراقبة الآخرين . .

فهم إبراهيم أن صديقه كان يفكر . . يفكر . . وأن شيئا ما سيحدث عما قريب . . شيئا ما سيتغير .

لم ينتظر طويلا. . بعد بضعة أيام انتحى نضال بإبراهيم جانبا. . وقال له :

-اسمع يا إبراهيم . . أريد أن أقول لك شيئا . في الواقع قد مر على بعض الوقت أفكر فيه ولم أدر كيف . . القصد ، كيف أقوله لك؟ تعرف أننى أحبك مثل أخى . . بل أنت تعنى لى كل شيء الآن . أنت كار ما بقى لى . . فأنا . .

- كنت أعرف ذلك يا نضال . . فقد مر أسبوع وأنت صامت . . تتابع كل شيء كما لو كان لا يعنيك . كنت أعلم أن شيئا سيحدث لكن بالله عليك يا نضال لا تتركني أضرب أخماسا في أسداس . . ماذا هنالك؟

ـقد قررت أن . . قررت الرحيل . . الرحيل . . أعنى . . لا تظن أننى أريد أن أختفى وأن أنساكم . . فلن تتخلصوا بسهولة من صديقكم القديم . . نضال . . لكنى لم أعد قادرا . . أشعر أننى أموت . حقا . . أنتم تمتلكون قدرة فريدة على علاج أنفسكم لكنى لا أستطيع

ذلك . حقالم أعد قادرا . لست قادرا على ادعاء أن كل شيء على ما يرام . لست قادرا على الشعور ما يرام . لست قادرا على الشعور بالسلام مع نفسى . لست قادرا على القراءة . . لست قادرا على أى شيء . . حاولت . . حقا . لكن . .

- لكن . . ماذا تقول يا نضال؟ ترحل! إلى أين؟ تريد أن تتركنى هنا؟! أنا . . أنت . . ألا تتذكر؟! لدينا الكثير من المخططات . . مستقبلنا معا . . لا أستطيع التفكير في شيء بدونك . . حتى ولو شراء اللبن لماذا . لماذا لا تريد البقاء مع من يحبونك؟ اسمع يا نضال . . أفهم تماما الجحيم الذي تحياه . . حين فقدت والدى كدت أجن من الألم وقررت الرحيل . . فقطعت كل صلة لى بماضي . . للمت أشيائي وجئت إلى هنا . . لكن كان ذلك من العبث . . قابلت أناسا آخرين علموني أن أحب . . لأننا لا يمكننا الهرب من الألم . . فهو يتبعنا علموني أن أحب . . لأننا لا يمكننا الهرب من الألم . . فهو يتبعنا أينما كنا . . والواقع أن الوحدة تجعله أصعب احتمالا . لقد ارتكبت خطأ . . والآن . .

حسنا . . دعنى أرتكب أيضا هذا الخطأ . . . أعطنى الفرصة للوقوع فيه . . . كنت على حق . . لكن اسمح لى بعمل ما أحتاج إلى عمله . . حتى لو كان خطأ . .

-اسمع يا نضال . كلنا في حالة سيئة . كلنا . نتكلم . نتبادل ابتسامات التشجيع القليلة . نحاول قضاء الأيام برباطة جأش . . لكن بالليل . ونحن وحدنا مع الأفكار . يغمرنا الألم . نعن نصارع اليوم بيومه لكن حتى ننجع في ذلك يجب أن نظل متحدين . كلنا معا . . لا أن تنفرق في القرى . . كل يعميه ألمه الخاص . لا يمكن أن نكون من الخاسرين .

- _حسنا . . يؤسفنى ذلك يا إبراهيم . . لست من الرابحين مثلك . . للذا يمكننى أن أخسر . . إذا كان رحيلى يعنى ذلك . لا تحاول إقناعى من فضلك . لقد اتخذت قرارى .
- ألا يمكننى فعل شىء لإقناعك؟ ألا يمكننى قول شىء لتعدل عن فكرتك؟ أتتخلى عنى؟ أترحل؟ وكيف تظن أنه يمكننى المواصلة؟ كيف تظننى أتغلب على الأيام والليالى؟ من سيمنحنى سبباللاستمرار. . للمواصلة؟
- _ هناك ريهام وجهاد وأيضا محمد ورامي الآن. سيمنحونك سببا للمواصلة. سيساعدونك.
 - ـ لكن الوضع مختلف . . لن يكون نفس الشيء .
 - _أعرف ذلك يا إبراهيم.
 - عناق. . عناق. .
 - دمعة . . اثنتان . .
 - لا.. لا.. توقف عن هذا.. افعل شيئا لوقفها.. ألا تستطيع؟! عشا.. لحظة كهذه..
 - لحظة لا يمكن وقفها . .
 - احتضن إبراهيم نضالا بكل قوته واستسلم للدموع. .
 - تَهُزُ جسمه الشهقات. .
 - تَحجب الدموع الرؤية عنه. .

يعتصر قلبه ألم لا يوصف. .

كل ما بناه منذ وفاة أبيه انهار في لحظة . .

كل ما بناه . .

وانفجر ضعفه. .

صار مرهقا من الآلام والعذاب.

مرهقا من الحرب والدم. .

وكان يريد فقط أن يعيش مع أحد. .

يُذكِّره صباحا بأبيه . .

يُذكّره ظهرا بأبيه . .

يُذَكِّره مساء بأبيه . .

يَمنحه سيا للحياة..

يرحل الآن..

ويتركه هنا. . وحده . . بلا حماية . .

في مواجهة كل مخاوفه وضعفه. .

شهقة أخرى . . أقوى . .

الألم قوة تُحطم كل مقاومة. .

يتغلغل متسللا في المخاوف والأحلام والأفكار والأحاسيس والعواطف والحقائق. .

وحين يهدأ أخيرا. .

كعملية ولادة تصل إلى نهايتها. .

أو عمل فني يخرج إلى النور كاملا. .

جاهزا أخيرا. .

حين يهدأ أخيرا. .

يترك وراءه فراغا . . سأما . . عدم تصديق . .

عناق. . شهقة . .

بينما تأتي من جهة باب المطبخ شهقة أخرى صغيرة . .

لا . . ليست لإبراهيم . .

ولا لنضال. .

بل للبائسة . .

غير المصدقة . .

المحتجبة ريهام.

رحل نضال بعد يومين. لم يجرؤ أحد على محاولة إقناعه. . ورجع ذلك من ناحية إلى ثبات عزمه. . ولأنهم شعروا من ناحية أخرى أنهم شديدو الصغر في مواجهة الألم الذي يعانيه فتى في مثل شبابه فقد أمه وأخته. . ومن ناحية ثالثة ؛ لأنه كان هناك شيء في أعماقهم يقول لهم إنه سيعود. .

سيعود. .

كان لا شك أملا ضعيفا كانوا يسعون إلى تحويله يقينا. .

نظر نضال إليهم واحدا واحدا. . وابتسامة حزينة على شفتيه. .

جهاد الذى كان يفرك عينيه . . متظاهرا أن كل شيء على ما يرام . . مجردا من شجاعة الاعتراف بأنه كان يبكى . . نعم ، لم يكن قادرا على كبح دموعه . . ليعطى إيحاء بأنه قوى . . محمد الذى كان يغمز غمزات صغيرة ويثير البسمات قليلا عن الآخرين و تخفيف حدة الموقف . . في حين كان حقيقة يعانى داخليا مثل الآخرين . . رامي الذى بدا مرتبكا ومترددا . . كان يجول بنظره في كل مكان دون أن يشبته على شيء . . ريهام التى كانت تنظر أرضا ولا تكف عن البكاء منذ يومين . . وتبحث عن بعض العزاء من إبراهيم . . بنظرة توسل في عينيها . . تسأله أن يُعنع نضالا بوسيلة أو بأخرى بالبقاء . . وأخيرا إبراهيم . .

إبراهيم الذي لم يفعل أي شيء مثلهم . .

بل اكتفى بالنظر في عينيه . . كان يُكلمه . . يواجهه بنظرة كلها اتهام . . لا يكف عن مخاطبته . . عن النظر إليه . . كما لو كان يقول له . .

ستفقد كل هذا . . ستفقد كل هذا . .

لكن لم تكن تلك وسيلة لإقناعه بالبقاء . . لا . .

بل طريقته الخاصة في وداعه قائلا. .

ستعود. .

ستعود. .

وعند لحظة معينة ساد الصمت . . توقفوا جميعا عن الكلام في آن واحد . .

ابتسم نضال مترددا . . نظر حوله . .

وقال أخيرا وهو يضغط على كل كلمة . .

لن أنساكم أبدا. . مهما حدث . .

لن أنساكم أبدا. .

وبالأخص حين ننتصر سنتساوى جميعا. . نحن . . والذين فقدوا حياتهم في تلك الحرب . .

سنجد السلام . . أقسم لكم بذلك . . أقسم لكم بذلك .

ثم عانقهم جميعا . . واضعا يداه على قلبه . . ليفهمهم أنهم سيظلون فيه في كل لحظة من حياته . . وضَمّ إبراهيم طويلا . . ظلا متعانقين لوقت بدا . .

لا نهاية له . .

انصهرت فيه كل مشاعرهما وأحاسيسهما. .

وتبادلا وعدا ضمّنيا . .

بالتلاقى . .

بالتلاقى.

ثم التفت نضال وذهب . . الخطوة بطيئة لكنها واثقة . . الظهر محنى قليلا . .

ثم كان النداء . .

صوت ريهام الناعم القوي. .

نضال..

التفت في اللحظة التي جرت فيها نحوه. .

تعانقا بقوة. .

ظلا متحدين . .

قائلين قوة الضمة وحدها. .

ألف كلمة...

باكين وضاحكين. .

وأخيرا مفترقين . .

نظر كل واحد في عين الآخر . .

مرة أخيرة .

بدت الأيام الأولى بعد رحيل نضال طويلة بشكل لا يصدق. كان كل واحد يستيقظ صباحا بفكرة واحدة في رأسه. . التغلب على الحزن ورتابة الحياة المسيطرين عليه.

كانت ريهام في كل مرة تُسقط فيها شيئا أو ترتكب حماقة . . تلتفت . . متوقعة ضحكة نضال الدافئة وكلماته الساخرة . . مزاحه الرقيق .

لكن لم يكن أحد يقول لها أي شيء . .

وصوت نضال كان فقط في خيالها. .

كان إبراهيم قبل الخروج يقول . . سأذهب مع نضال . . شيء يتنافى مع العقل . . ثم يتذكر أن نضالا لم يعد موجودا . . لم يعد موجودا . .

ولم تكن تواتيه القدرة ليطلب من جهاد مصاحبته . .

لأنه كان يعرف أن ذلك مجرد ذريعة . .

ولم يبدله ذلك من العدل.

ظل «محمد» _ مع إحساسه بغياب نضال _

محتفظا بابتسامته ومرحه. .

كان يمزح . . ويحيى المناقشات . .

كان يحافظ على وحدة المجموعة . .

وعندما كان يذهب إلى المستشفى مع رامى ، كان غيابه محسوسا . .

والبيت يسوده السكون.

أخذ إبراهيم يخرج كثيرا، ويقضى طوال النهار بالخارج. .

كان يعود دون أن يعطى أي تفسير لجهاد أو ريهام . .

الشيء الذي ضايقهما وأقلقهما أيضا.

كان نضال دائما نقطة الرجوع لكل واحد منهم. .

وغيابه كان يربكهم ويخيفهم . .

وكأن شيئا جوهريا كان ينقص كل مناقشة. .

كل موقف. . كل جدال .

مع مرور الوقت بدءوا يواجهون مشكلة حقيقية في التواصل . .

فلو حمدث أن تكلمموا مع بعضهم البعض كان ذلك فقط للشجار . . للإساءة والتراشق بالشتائم . .

كان كل واحد يصب غضبه على الآخرين . . و يُنفس عن ضيقه الشديد من ذاك الصراع الأزلى مع الأشخاص الوحيدين الذين يحبهم كل الحب . . والذين بفضل وجودهم إلى جواره يمكنه نسيان الحرب ولو لحظات . الآن صاروا لا يتكلمون عن السلام . . الحوار . . سياسات عرفات أو الاعتداءات والعمليات الانتحارية . . اكتفى كل واحد بجلب أخبار ما يحدث طوال اليوم . . احتلال بلدة أخرى . . مصرع مجموعة من العائلات الفلسطينية . . إصابة إسرائيليين . مصرت ثلاثة أشخاص . . الهجمات . أعمال العنف . كانوا موت ثلاثة أشخاص . . الإحداث الأكثر مأساوية . . الاستنتاجات ذات يكررون الكلمات . . الأحداث الأكثر مأساوية . . الاستنتاجات ذات الطابع السوداوى . . ويبدون تشاؤمهم علانية من مصائب الحرب .

كانوا يعرفون أن الهواء السابح فى فراغ البيت مشبعا بالتوتر . . بعدم التفاهم . . وبالأحقاد . . لكنهم لم يفعلوا شيئا لتحسين الأوضاع . . بدا الأمر كما لوكان رحيل نضال المفاجئ قد أبرز أسوأ ما فيهم . . ورغم إدراكهم لذلك . . ازداد الموقف تأزما .

ذات ليلة. . لم يعد إبراهيم إلى البيت. . وفي اليوم التالي عـاد ١١٤ حوالى الحادية عشرة صباحا فى حالة مرح ولا مبالاة وصلت إلى حد الوقاحة. . نشب شجار بينه وبين ريهام المغتاظة. . فشلت محاولات محمد ورامى وجهاد لتهدئتها.

_ إبراهيم! . . الحصد لله والشكر له! كم أخفتنا! يا إلهى . . البراهيم . . أنت . . أنت عديم الإحساس . . نعم ، أنت فعلا إبراهيم . . أنت . . أنت عديم الإحساس . . نعم ، أنت فعلا أنانى بشع عديم الإحساس! أين كنت؟! لقد كنت أرتجف رعبا طوال الليل! القصد . . لكن كيف يا إبراهيم؟ كيف جرؤت . . كيف جرؤت؟! تختفى هكذا دون أن تقول شيئا لأحد . أليس عندك قلب؟ هه؟ لقد قضينا الليل بطوله نبحث عنك في كل المستشفيات ، في الشوارع ، في كل مكان ، والخوف يقتلنا . مذعورين . . مرعوبين! ماذا يدور في رأسك؟ أنا أكرهك! منذ رحل نضال لم تكف عن سوء الطبع وقلة الأدب واللامبالاة! أنت تجسعلنى . . أنت سوء الطبع وقلة الأدب واللامبالاة! أنت تجسعلنى . . أنت أسفر عليك أم إنك تصيبنى بالغشيان! لتفهم جيدا أننى لا أطيق أن أراك ثانية . . اذهب وإلا المصررت أن أبصق عليك . . بل . . بل انتظر لحظة . . أين كنت؟!

اسمعى! اهدئى أولا واخفضى من صوتك! ثم إننى لن أسمح لأى شخص بأن يحاسبنى على أفعالى وتصرفاتى! كيف تجرئين على شتمى وعلى رفع صوتك على "؟ فمهما كنت لست سوى امرأة!

ـ هكذا؟ وماذا يعني ذلك؟ والآن تمارس على رجولتك! كم أحتقرك!

ـ كفي يا ريهام . . اهدئي . . ليس هناك ما يدعو لـ . .

اسكت أنت يا جهاد! وأنت أيها الوقح ما الذي ترمى إليه بقولك ١١٥

إننى لست سوى امرأة؟ هه؟ أين قرأت أن الرجال أفضل من النساء، أو أنهم يمتلكون حقا أكبر في الكلام والصراخ والغضب وفعل ما يحلو لهم؟ كيف تجرؤ أيها الوقد. .

بل لى الحق فى ذلك! أعود للبيت متعبا . . منهكا . . وأفاجأ بمخبولة فى حالة هستيرية تصرخ فى وجهى وتشتمنى . . فكيف يكون رد فعلى؟ بما أننى لا أعنيك فى شىء و . .

لكن يا إبراهيم . . هي لم تقل إنك لا تعنيها!

- اسكت يا محمد! وأنت لم يجبرك أحد على الذهاب للبحث عنى! أنا أخرج حين يحلو لى وأنت اهتمى بشئونك! فقد ضقت ذرعا بالعيش مع امرأة هستيرية تريد أن تلعب دور الأمومة على"! من الأفضل لك أن تخفضى من صوتك . . اذهبى للنوم . . أو افعلى أى شىء آخر فسيكون ذلك أفضل للجميع!

-آه. أهكذا تعاملني؟ أهكذا تثبت لى محبتك وعرفانك بالجميل؟أنا التى تقضى كل وقتها فى خياطة جواربك وتحضير طعامك وانتظارك مهما تأخرت . والتحدث معك قليلا حديثا لا يخلو من الرقة . وتسوية سريرك . وكئ قمصانك . والقلق عليك فى غيابك . وأنت تشكرنى بالصراخ فى وجهى بأن أهتم بشئونى وأن أترككم فى حالكم! أتعرف ماذا أقول لك؟ . . أنت من جنس وضيع . . أتعرف ماذا أقدول لك؟ سأرحل إلى الأبد! هكذا لن أزع جك ثانية . . وستسهر الليل كله تفعل ما يحلو لك دون أن تقلق عليك مخبولة هستيرية كما تقول عنى! سأرحل الآن . . هكذا سترتاحون جميعا و ستكون أسعد حالا!

ريهام . . إنك تبالغين الآن . . نحن لا نريد أن نرحل من هنا . . نحن وسط أصدقائنا . . ليس هناك ما يستحق هدم كل شيء من أجل شيجار . .

- جهاد عنده الحق. . إبراهيم أخطأ بلا شك، لكن لا يجب الانفعال إلى هذه الدرجة.

لا تتدخل يا رامى! وأنت يا جهاد . . إن كنت تريد البقاء فلتبق! لا أجبرك أن تتبعنى! بل على العكس أراك بدأت تفكر مثلهم . . أنا لست سوى امرأة ويجب أن أسكت . . ليس لى الحق حتى فى الغضب . .

لكني لم أقل هذا أبدا! ريهام . . حاولي أن تهدئي . .

ـ لا لن أهداً! ألا تلاحظ أن ما من أحد يحترمنى هنا؟ ألا تلاحظ أن. . أنت السبب يا إبراهيم! أنت! كل هذا بسببك! أنت عديم الإحساس! لعلها تلك الحرب القذرة التى غيرتك هكذا . . أو ربحا كان رحيل صديقك العزيز نضال هو الذى فعل بك هذا . . لقد صرت وحشا! أتريد أن تعرف؟ تلك الليلة كان أجدر بك أن تختفى للأبد . . على الأقل كنت سأكف عن القلق . . أرأيت . . إن الغيظ يجتاحنى لمجرد التفكير في الدموع التي ذرفتها عليك تلك الليلة . .

لم يسألك أحد أن تذرفين الدموع! تقومين بتمثيلية كبيرة وتتظاهرين بأنك راحلة، لكن لن يغير ذلك شيئا! أنت تثيرين الشفقة. . أنت إنسانة مريضة نفسيا عاجزة عن فعل أي شيء . . تهاجم شخصا ليس له دخل بشيء!

_ سترى إن كنت أتظاهر أم لا! سأرحل . . وما دُمت قد قلت هذا فسأفعله حتما!

ـ لا . بل سأذهب أنا!

ـ لا . . لا يا عزيزى . . لا تعكس الأشياء! لقد ضقت ذرعا بك ا ابق هنا حتى تقتل الآخوين حزنا عليك . رامى . . محمد . . وجهاد طالما سنحت لك الفرصة . لأنك يجب أن تعرف يا إبراهيم . . تذكر ذلك جيدا . . ربما كانوا على استعداد الآن لاحتمال حماقاتك ولا مبالاتك . . لكن يوما ما سيسأمون هم أيضا منك . . وساعتها ستجد نفسك وحيدا مثل الكلب! أفهمت ؟ وحيدا مثل الكلب!

ـ هذا ما تقولين! أنت التى ستكونين وحدك . كم أنت شرسة! اسمعى شيئا واحدا: توقفى عن محاكمتى . . ليس لك الحق فى قول هذه الأشياء! أفعل ما يحلولى ولو لم يرض الآخرون عن تصرفاتى فتلك مشكلتهم هم! لو أن «محمد» لا يريد أن أبقى فى بيته فليقل لى ذلك!

-لم أقل هذا أبدا يا إبراهيم! إنك تبالغ الآن! فيما يخصنى أنت يمكنك القاء هنا مدى الحياة..

ـ لو استمرت هذه المخبولة . . لن أبقى هنا دقيقة واحدة!

ـ لا يا عزيزى.. أنا التي سترحل الآن! اتركوني لحالى! لا يلمسنى أحدا حتى أنت يا جهاد! لا تقترب منى! سأرحل الآن إلى الأبد! هكذا! أين حقيتي؟ أين أشياشي؟ والآن.. كل شيء بداخلها..

_ريهام. . ماذا تفعلين؟

-رامي . . لا تتدخل . . اتركني!

ـ ريهام . . توقفي الآن الن تذهبي إلى أي مكان . . لأن . .

حجهاد. . لم أطلب منك شيئا! ابق هنا مع أصحابك واتركني لحالى! حسنا . . والآن بما أن كل شيء جاهز سأرحل الآن .

_ ريهام. . كفي! كفي جميعا ولنتحدث بهدوء.

ـ نعم، رامي على حق . . ريهام . . من فضلك . .

_هيا. . هيا. . كفي . . تعالى هنا. .

ـ لا تقتربوا مني! أفسحوا! يكفي هذا! سيكون صديقكم إبراهيم مرتاحا الآن!

_ريهام. . لم أقص. .

ـ لا يا إبراهيم. . بل هذا ما قصدته تماما! سترحل المخبولة الآن!

_ريهام!

_وداعا يا جماعة . . خذوا بالكم من أنفسكم!

- تبالك يا إبراهيم أرأيت ما فعلت؟ لقد. . لقد ذَهبَتُ! جهاد. . ماذا تفعار؟

_أتظنني تاركا أختى وحدها يا محمد؟ أتظنني أتركها ترحل هكذا؟

_ لا . . لكن يمكنك إقناعها بالبقاء!

_أختى عنيدة ومتكبرة. . حين تقرر شيئا تفعله! كل ما أستطيع عمله هو اللحاق بها. . أين ساعتى؟

_ جهاد . . لا أحسبك تشجع نزواتها!

- ليست بنزوة يا رامى! لقد قلتم لها كلاما مسيئا! إبراهيم شتمها وأهانها! _ لماذا . . وهل كانت تصرفاتها مقبولة؟ ربما!

-إبراهيم . . لم تكن هى التى قضت الليلة خارج البيت دون أن تخطر أحدا! وفى الظروف التى نعيش فيها . . والصبية الذين يخرجون لشراء بعض الاحتياجات ولا يعودون إلى البيت!

_ آه. . إذن الخطأ خطئي! تريدون أن تقولوا أن . .

_إبراهيم. . اسكت الآن! جهاد. . ألا يمكنك محاولة . .

لا يا محمد. . لا فائدة. سأذهب الآن. خذوا بالكم من أنفسكم.
يجب أن أسرع. . يعلم الله أين ذهبت ريهام. .

خرج جهاد أيضا وصرة ثيابه على كتفه. .

رحل على عجل..

ولحظة أن خطا خارجا أخذ يعدو على الطريق الضيق حتى رأى أخته . .

نادى عليها . . هاتفا باسمها . . التفتت بالكاد . . دون أن تتوقف عن السير . . ونظرت إليه . .

ثم التفتت ثانية واستمرت في السير . . لكن أبطأ من ذي قبل . .

كانت تلك طريقتها في أن تقول له إنها تنتظره . .

في البيت لم يعد أحد يصرخ. .

صمت غير مألوف. .

صمت حزين . .

كانت عينا إبراهيم منكستين بالأرض. .

أما محمد الذي كان يمشى يمينا ويسارا . . ينقل الأغراض . . يَعْدُلُ اللوحات . لم يكن يَدُر ماذا يقول . . لم يكن يَدُر ماذا يقول . .

لم يدر بماذا يفكر . .

لذلك فضل أن يشغل يديه بفعل شيء . .

رامي كان يتابعه دون أن يعرف ما كان يجب فعله. .

هل يبكى؟ . .

أم يضحك؟..

لم يعد أحد يتحرك..

ولما لم يجد محمد أي شيء آخر ليفعله. .

جلس على أريكة وظل صامتا. . ينظر حوله . .

ثم رفع إبراهيم عينيه وسأل . . بصوت خفيض مبحوح . . والندم في عينيه . .

سأل فقط. .

أتعتقدون أنها ستعود؟

هذا ما سأل . . أتعتقدون أنها ستعود؟

ولم يَدر أحد بما يجيب. .

لأنهم كانوا يأملون ذلك . . يأملونه بحرارة . .

لكن ما من أحد استطاع أن يقول ذلك . .

كان من المؤكد أنه إذا لم يعد جهاد وريهام . .

سيتركان فراغا يصعب سده. .

وكان الوضع سيتدهور أكثر. .

لو أمكن ذلك. .

كانت تلك نهاية شيء ما . . كانت تلك نهاية شيء ما . .

أولا نضال. . ثم ريهام وجهاد. .

ربما جاء الدور على إبراهيم!

وفي تلك اللحظة سأله رامي بسخط وفضول. .

سأل إبراهيم أين ذهبت؟!

و كانت الإجابة كما توقعها بالضبط. .

كنت أتسكع . . هكذا . . أتسكع . .

لأجد نفسى قليلا . .

لأفكر..

لأتأمل...

لأؤذى نفسى . .

سأله محمد . .

أفعلتها عمدا؟ . . لا يمكن! قل لي الحقيقة يا إبراهيم . . أفعلتها عمدا؟

فجأة فهم . . فجأة عرف . .

أحس بحزن عظيم . .

لهذا الفتى . .

أفعلتها عمدا؟

وأجاب إبراهيم . .

نعم.

في تلك الليلة لم ينم إبراهيم. .

لم يكف عن التقلب في فراشه . .

عن تغيير وضع جسمه بلا هوادة. .

ثم نفض عنه الأغطية . .

ونهض ماشيا حافي القدمين على الأرضية الباردة. .

خرج من الحجرة التي كان ينام فيها حتى الليلة السابقة مع جهاد. .

وذهب إلى المطبخ. .

صَب لنفسه كوبا من الماء البارد..

روى حلقه الجاف وظل برهة مثبتا نظره في الفراغ. .

ألتلك الدرجة تخاف أن يحبك أحد؟

ألتلك الدرجة تخاف أن يحبك أحد؟

تَفَحص يديه. .

أظافره المقضومة. . أصابعه الطويلة والرشيقة. .

مثل أصابع أمه . .

على الأقل كما كان أبوه يقول دائما..

ثم نكس رأسه . . وأسندها على طاولة المطبخ . .

مسكا بها بين يديه . .

وها هو . . كان لا يزال قادرا على تدمير كل شيء . .

تدمير كل شيء . .

وماذا يهم إنْ كره نفسه. .

كل مرة أكثر!

المشكلة هي أنه قد انتهى بدب الخلاف في المجموعة . .

وحطم الشيء الوحيد الجميل الذي نجح في بنائه في حياته. .

الصداقة..

الصداقة..

كان ذلك يبدو عبثيا. . لكن في الحرب. . لكن هنا. .

بلا والدين. . بلا أسرة. .

بلا سَند. . بلا شيء صلب وأكيد. .

الشيء الوحيد الذي بقي له. .

أهم شيء . .

كانت الصداقة. .

فكر إبراهيم . . إنهم يرحلون جميعا . .

نضال رحل . . ريهام وجهاد رحلا . . سأظل وحيدا . .

بعد قليل سيسألني محمد الرحيل عن بيته . .

ما الذي أصابني؟ ١ آه . . تبالي . . ما الذي أصابني؟!

لأن الخوف كان شديدا جدا. . الخوف من أن يُحب أحدا. .

أن يُحب أحدا بشدة . .

الخوف من الإحساس بأن ارتباطا قويا. .

لا يمكن فسخه . .

مع شخص. .

قدينشأ..

الخوف من التغلغل في قلب شخص آخر. .

كل ذلك . .

يبدو الحب سهلا . . يبدو الحب سهلا . .

لكن الأسهل منه أن تكره . .

الكراهية إحساس لا سند له . . لا يحتاج الكثير . .

لكن إبراهيم لم ينجح في أن يُحب. .

أن يُحَب. .

ۇ يىحب . .

أم يُحَب؟

ربماليس ذلك الشيء نفسه!

ربما ليس ذلك الشيء نفسه!

شعر بدمعة تجرى على خده ببطء . . تولد وتموت في الوقت نفسه . .

الذي يغلق فيه عينيه. .

إحساسه بالحنين إلى نضال . .

قلب له معدته . .

أو قلبه ا

الآن صار لا يميز بين الأشياء . . لا يتعامل إلا مع العذاب في تلك اللحظة . .

ريهام..

كانت غالية جدا عليه في الواقع . .

أحبها كأخت. .

وتسببت له في خوف رهيب. .

رد فعلها. .

حقيقة أنها كانت قلقة لتلك الدرجة . .

حقيقة أنها خافت هكذا عليه. .

تذكر أنها . . وسط الصياح والشتائم . .

قالت له إنها بكت طوال الليل. .

وذلك . . الشيء المنافي للعقل . . أسعد إبراهيم . .

ذلك الشيء آلَمَ إبراهيم . .

وأسعده في الوقت نفسه. .

الخوف من الدخول إلى قلب شخص ما. .

والفرحة..

لو كان قد مات. .

كانت ستبكى عليه. .

هي مثل الآخرين أيضا. .

لم يحي هباء . .

وكان شخصا مهما في حياة خمسة أشخاص طيبين على الأقل. .

ألم يكن ذلك يعنى شيئا؟ . .

ارتسمت ابتسامة على وجه إبراهيم حين تذكر الأوقات . .

التي أظهرت فيها ريهام حبا . . شبه أمومي نحوه . .

أحس أنه مسكين وقاس. .

تصرفه على ذلك النحو قطع عنه فرصة أن يكون محبوبا. .

من ريهام . .

وربما من الآخرين. .

أنا بارع جدا في تدمير كل شيء. .

بشكل غريب. .

بارع..

في الصباح التالي خرج رامي مبكرا للذهاب إلى المستشفى . .

عوضا عن ذلك . . ظل محمد بالبيت لترتيبه قليلا . . ثم قال إنه سيذهب ليرى إن كانوا في حاجة إليه بالمستشفى . . فسأله إبراهيم إن كان يمكنه أيضا عمل أي شيء بالمستشفى . .

نظر إليه محمد بنفور . . دون أن يقصد ذلك . . وقال له لا .

بلع إبراهيم ذلك بصعوبة. . لكنه جاهد ألا يبدو عليه التأثر . . وأجاب أنه في هذه الحالة سيذهب للبحث عن عمل بالبلدة . .

بعد أن خرج محمد. . استأذن إبراهيم وخرج هو الآخر . .

تجول قليلا على غير هدى أولا ثم . .

توجه نحو مجموعة المحال الوحيدة في المنطقة كلها . .

بالقرب من المسجد الذي كان يرتاده للصلاة رأى أنه في إحدى الحقول الخالية والمهجورة عادة نُصبت خيام للاجئين . .

تساءل . . تُرى أي القرى استولوا عليها هذه المرة . .

توقف شاردا ينظر . . ثم قال لنفسه إنه ربما كانت هناك حاجة إليه . .

اقترب بهدوء . . مترددا بعض الشيء . .

ورأى على الفور سرائر المعسكر الخشبية الخشنة ذات الملاءات المتسخة. .

أطفال . . شيوخ . . نساء . .

جرحى . . داميين . . محتضرين . .

باكين. . حزاني . . منهارين . .

لكنهم جميعا في حاجة للمساعدة . .

فور وصوله اقترب منه فتي صغير . . قال له :

نحن بحاجة للمساعدة . .

أين أقرب مستشفى؟

وأجابه إبراهيم بأن المستشفى ليست قريبة، لكن هناك شاحنة عند البيت ويمكنه إحضارها لنقل الجرحي. .

قال له الولد إنهم جميعا ممتنون إليه. . ممتنون للغاية . .

تابعه إبراهيم بفضول . . كان فتى طويلا . . متوسط البنية . . بشرته فاتحة . . عيناه خضراوان حادتان بشكل متفرد . . شعره أسود كالأبنوس . . أشعث . . شفتاه صغيرتان مرسومتان بدقة . . في الواقع كانت ملامحه ناعمة بعض الشيء ، لكنه كان مفعما بالرجولة . .

كانت تركيبته غاية في التباين.. كان أسلوبه في التصرف.. حديثه.. يبدو غاية في الشجاعة.. رغم صغر سنه.. لكن عينيه المرسومتين كلوزتين وبشرته الرقيقة، تعطى انطباعا بأن له هيشة أثنوية.

قال إبراهيم إنه سيعود بسرعة . . جرى إلى البيت حيث إنه كان يعرف أن محمدا قد ترك شاحنته في ذلك اليوم . . واتجه فور وصوله إلى حجرة محمد . . فتح الأدراج . . فتش في الجيوب . . رفع حتى المراتب . . بحثا عن المفاتيح . . أخيرا وجدها داخل زهرية بالصالة .

جرى خارجا وقفز إلى الشاحنة بقليل من العناء.

لم يكن قد سبق له قيادة شاحنة . . لكن في تلك اللحظة لم يَعن له ذلك الكثير . .

لم يكن ذلك بالأمر الصعب. . أليس كذلك؟

أدار مفتاح التشغيل وضغط على دواسة البنزين. .

وبقدر ما كان متعجلا كاد أن يُضيع كل شيء. .

فالواقع أن الشاحنة قد قفزت إلى الأمام. .

فرفع قدمه عن الدواسة وأخذ نفسا عميقا. .

لما أعاد المحاولة كان أكشر حرصا. . وفي تلك المرة تمكن من السيطرة على المحرك. .

سار للخلف و خرج من الفناء . . ثم بدأ في القيادة كما لم يفعل من قبل . . بحرص مفرط . . لأنه في تلك اللحظة كان يشعر بأهميته . .

كان قادرا على مساعدة الناس.

كان قادرا على مساعدة الناس الذين يعانون مثلما عاني . .

وكانت تلك هي الفرصة التي منحه الله إياها بعد طول انتظار . .

لما عاد إلى المعسكر ضغط على الفرامل وأوقف المحرك. .

وأدرك أن السيطرة على الشاحنة لم تكن بالصعوبة التي توقعها. .

بل بالعكس . . فبتعوده عليها بدت أكثر سهولة من قيادة سيارة صغيرة . .

فور نزوله سارع الفتي للقائه. .

قال له . . أسرع . . أسرع . .

بسرعة وبرفق تعاونا على حمل الجرحى . . والموتى . . للأسف كان هناك بعضهم . . وكان ذلك فظيعا . . تلك العيون المحدقة فى الفراغ . . الجاحظة . . تلك الوجوه الشاحبة . . أراد إبراهيم أن يغلقها . . تلك العيون . . كما لو كان يريد إراحة نفوس هؤلاء الناس . . لكنهم كانوا كثيرين . . كثيرين . . كان يستحيل غلق كل العيون . .

هَمًّا مسرعين . . وأحس إبراهيم بقلبه يعتصره الألم عندما سمع بكاء الأطفال . .

بعضهم كمان يبكى؛ لأن أرجلهم أو أذرعهم . . أو أيديهم . . كانت شبه مفصولة عن أجسادهم . .

والآخرون رأوا آباءهُمْ يُرفعون إلى الشاحنة. . أمّا هُم فكان يجب أن يبقوا هناك. . كان يجب أن يبقوا هناك. .

قاد إبراهيم بسرعة محاولا تَذكُّر الطريق إلى المستشفى. .

جلس الشاب إلى جواره وقال له:

أختى هناك بالخلف. .

أرجوك أنقذها. .

أرجوك أنقذها. .

شعر إبراهيم بالألم يعتصر قلبه أكثر من ذي قبل . .

لأن الفتي تكلم بحرارة شديدة . . كابحا دموعه . .

أراد أن يبدو قويا صلبا . .

تذكر إبراهيم نفسه قبل بضع سنوات. . لأن الفتى كان يصغره بخمس أو ست سنوات على الأكثر. .

تذكر نفسه قبل بضع سنوات. .

الشيء الوحيد الراسخ في ذهنه. .

كانت جملة أبيه الأزلية . . أن يكون رجلا . . لم يَقُلها أبوه حتى تصير له وسواسا . . ولم يقلها ليفرض عليه مسئوليات لم يكن له طاقة بها . .

لكنها انتهت بأن تحولت إلى وسواس . . وكان هو في سبيله إلى الجنون . .

تذكر نفسه في مثل هذه السن . .

أدرك أنه كان محظوظا . .

أن يقابل أناسا أحبوه. .

وصلى أيضا لأجل أن يجد هذا الرجل الصغير . . إنسانا يحبه ويساعده في مواجهة حرب كبيرة جدا . .

كبيرة جدا عليه.

أخيرا نجح فى الوصول إلى المستشفى. . سارع نحوه ممرضون فى الحال. . ونُقل المصابون أولا. .

ثم جاء دور الموتى. .

جرى إبراهيم إلى الداخل وبحث عن الحجرة التي حملهم إليها محمد في المرة الأولى . . دخل ووجد محمد ورامي . .

سألاه في الحال:

ماذا أتى بك إلى هنا؟

فشرح لهما ما حدث. .

خرج الاثنان فورا ليساعدوا _ هم _ أيضا . .

عندما وجد الفتى سأله:

أين أختك؟

فقاده إلى مكان أشبه بغرفة الانتظار كُدس فيه المصابون. . بعضهم على الأرض. . والبعض الآخر على أسرّة صغيرة. . أخذه الولد إلى أحد الأسرة وقال:

هذه أختى . .

اسمها أشجان . .

أشجان كانت تنزف بشدة وتضع يدا على قلبها . .

أدرك إبراهيم أن أحدا لن يتمكن من إنقاذها . . على الأرجح

كانت نفس إصابة إنجى. .

لما التفتت الفتاة رأى إبراهيم وجهها وشعر بوخزة في قلبه. .

رأى عينين خضراوين مماثلتين حتى في شكلهما لعيني أخيها. .

رأى لون البشرة الرائع . .

الشفتين الرقيقتين والمرسومتين بدقة . .

الوجه البيضاوي والبشرة الناعمة . .

كان ذلك واضحا. . لم يكن هناك حاجة للمس . . كانت البشرة ناعمة . .

بشرة طفل. . كالحرير الوردى. .

بشرة ناعمة ملوثة بالدم. .

واليدان ذواتا الأصابع الطويلة الرفيعة كانتا تلتمسان يدي الأخ.

لبي الفتى النداء في الحال..

اقترب منها وقال:

178

سنتخطى الأزمة يا أشجان. . سنتخطى الأزمة . .

دخل رامي في عجالة . . اتجه نحو إبراهيم ونظر إلى الفتاة . .

قال إنها في حالة خطرة جدا. . هذا ما قال . .

وسأل إبراهيم والفتى أن يساعداه في حملها إلى الخارج. . كان يلزم نقلها إلى غرفة العمليات . .

كانت المشكلة أن الممرضين والأطباء مثقلون بالعمل. . عدد كبير من الضحايا وصل من عدة قرى مجاورة. .

كان تقدم العدو مستشعرا بوضوح. .

ضبَط إبراهيم نفسه يأمل في نجاة الفتاة الشابة . .

كانت جميلة جدا. . رقيقة جدا . . وأثناء رفعها بمساعدة الاثنين الآخرين شعر بنحافتها ورشاقتها . .

ضبط نفسه يدعو لها بالنجاة . .

لبعض الوقت أغلق عينيه تماما . .

ثم فتحهما . .

كانوا قد وصلوا إلى غرفة العمليات. . مددها على مائدة العمليات بساعدة رامي . .

ثم..

خرج من الغرفة ونظر إلى الفتي. . وسأله عن اسمه. .

أحمد . كان اسمه أحمد .

ولما نظر إليه إبراهيم أحس بعذاب هائل..

نفس العذاب الذي جربه من قبل. .

وقال له . . قال له :

سوف تنجو يا أحمد. . سوف تنجو . .

كان يعرف أنه يكذب..

ماتت أشجان في غضون ساعات. . أثناء العملية . .

خرج طبيب من غرفة العمليات. . متعب الوجه. . تحيط عينيه هالتان سوداوان . . بطىء الخطوة . . حزين النظرة . .

فَهم أحمد. . فهم لأنه اضطرب على الفور . .

سأله . . سأله في الحال . .

- خيرا؟ خيرا. . هل أشجان بخير؟ متى يمكنني الدخول لرؤيتها؟ متى يمكننا العودة إلى البيت؟ هل سألتك عنى؟

_ أحمد. .

ـ هل أستطيع الدخول إذًا؟ هي بخير أليس كذلك؟ هل أستطيع . .

_اسمع يا أحمد. .

ـ لا بد أن أرى أشجان، الآن، اتركوني أراها، من فضلكم. .

_اسمع يا سيدي. . أنا في غاية الأسف. . لقد حاولنا أن. .

ـ لا. لا! أشجان في أحسن حال! لماذا لا تريدونني أن أراها؟ قالت

لى إنه لن يحدث شيء. . إننا سنظل معا دائما! لا يمكنكم منعى من العودة معها إلى البيت!

-أحمد. . لقد انتهى الأمر . . هيا يا أحمد . . أرجوك . . أشجان موجودة الآن في مكان أفضل لن تتعذب فيه ثانية . . أشجان لم تتخل عنك يا أحمد . . هيا . .

الدموع . . النحيب . . اليأس . . الألم . .

العجز . .

ضَمَّه إبراهيم. . ضمه بقوة. .

تعرفا منذ ساعات قليلة . . لكنه شعر نحوه برغبة فطرية في حمايته وحنان لم يشعر به نحو أحد من قبل . . ضمه بكل قوة يمتلكها . . ربّت على رأسه . . بينما استسلم أحمد للنشيج وعانقه بنفس القوة . .

ضمه إبراهيم . . ضمه . .

لأنه كان يعرف كم اشتاق لحضن كهذا عندما كان في مثل عمر أحمد!

لم يكن أحمد يرد مغادرة المستشفى . . كان شديد التعلق بأخته وهو في سن المراهقة . .

كان يعيش معها هي وزوجها . .

الذي مات هو الآخر أثناء احتلال بَلدتهم. . كانا يعيشان وحدهما منذ طفه لتهما . . صار أحمد بلا مكان يذهب إليه . . ولا أحد يعزيه في وفاة أشجان . . ولا أحد بشاركه آلامه . .

ولم يتردد إبراهيم لحظة . .

لم يفكر حتى في استئذان محمد . .

كان قد قرر بالفعل. .

هذا الفتى لم يكن قادرا على العيش وحيدا. .

هذا الفتي وجد أسرة. .

انتظر إبراهيم حتى نام . . ثم حمله إلى الشاحنة بمساعدة رامى . .

قال لصديقه أن يخبر محمدا أنه أخذ الشاحنة ليعود بها إلى البيت. .

وأنه اصطحب معه شابا يافعا. .

لم تعد قيادة الشاحنة تمثل له مشكلة . . رحلتان كانتا كافيتين للتعود عليها . .

قطع البلدة وهو يراقب الطريق بعين وأحمد بالأخرى. .

ثم. . عندما وصل إلى البيت . . حمل أحمد إلى حجرته ومدده على الفراش . .

ثم عاد إلى الصالة وجلس..

فكر في أشجان . . في جمال وجهها . .

فكر في الأهمية التي كانت لتلك المرأة في حياة أحمد. .

أحس بنوع من الكآبة الحادة والعميقة تطغى على قلبه. . وعقله . . حاول التحرر منها . . حاول التجرد من مشاعره . .

لأن المشاعر تقلب كيانك . . تقلب كيانك . .

لكنه لم يستطع . .

فكر في أشجان وفي أحمد وفي ريهام التي بكت من أجله ذات ليلة . .

والتي كانت الآن_الله أعلم أين_مع أخ تائه وقليل الحيلة. .

لم يشعر فقط بالكآبة . . ولكنه شعر أيضا بالغم والإحساس بالذنب . .

أمضى طيلة فترة ما بعد الظهر في التفكير . . في النوم . . وقراءة القرآن الكريم . .

دون حتى القدرة على الخروج. .

ثم أخيرا حضر رامي ومحمد. .

أحمد كان لا يزال نائما . .

عندما وصل أصدقاؤه أعد الشاى وظل يتحدث عن أحمد . .

شرح إبراهيم ما حدث له منذ خروجه من البيت . .

تكلم بلا انقطاع لمدة نصف ساعة . . ثم سكت . . متعبا حزينا . .

نظر إلى محمد في عينيه . . سأله إن كان يمكن لأحمد البقاء . .

أجاب محمد أن الفتي يمكنه البقاء. . وللمدة التي يريدها أيضا. .

على العكس فإن من واجبهم أن يقدموا له المساعدة . .

أحس إبراهيم بتعاظم تقديره لمحمد . . وضع يدا على كتفه وشد عليه بحب . .

لكن فجأة سمعوا صوت أحمد مشدودا ومنزعجا. .

التفتوا بسرعة ورأوا الولد واقفا على عتبة الصالة. .

قائلا لهم. . لا . . شكرا . . إنه لن يبقى عندهم. . إنه يجب أن يذهب لأخته . .

أشجان كانت تنتظره. .

أجلسه إبراهيم . . كلمه . . التمس عون رامي ومحمد . . اللذين أخذا يكلمان أحمد بلطف . . .

أختك لم تعد. . لم تعد هنا. .

يجب أن تقبل الأمر . . يجب أن تقبله . . نعرف أنه أمر قاس لكنك يجب أن تقبله . .

إبراهيم كان لا يزال يعتقد إلى وقت قريب أنه لن يشعر أبدا بألم أقوى من الألم الذي أحس به من قبل . .

لكن في تلك اللحظة . . إحساسه بالاضطراب والغضب . . بالألم والحنين . .

تنامى . .

ما الألم الذى سيسببونه لنا ثانية؟ ما الذى بقى ليدمروه؟! من الذى بقى ليقتلوه؟! متى سينتهى كل ذلك؟ سيأتى يوم لن يبقى فيه شىء للتدمير.. لن يبقى فيه إنسان للقتل.. وساعتها لا شك أنهم سيتوقفون! وساعتها لا شك سينتهى كل ذلك.

هل ماتت حقا يا إبراهيم؟ هل حقا انتهى كل شىء؟ هل انتهى يا إبراهيم؟ . . - نعم يا أحمد . . بشكل ما . . انتهى .

فى ذلك المساء قرأ إبراهيم القرآن الكريم بصوت عال . . بينما بقى محمد وأحمد يخفضان رأسيهما . . مستغرقين فى الدعاء . . ينصتان إلى الآيات التي يُرتَلها إبراهيم بصوته العميق .

رامی کان یتابعهم . . کان یصلی فی رکنه . . لم یکن مُهما أنه ۱٤۱ يعتنق ديانة مختلفة . . لم يكن مهما أن كتابه المقدس لا يقول نفس الأشياء بالضبط التي في القرآن الكريم . . في تلك اللحظة لم يكونوا كلهم سوى جماعة من المصلين الذين يلتمسون معونة ربهم . . الإله الواحد . . يطلبون إليه أن ينتهى كل هذا الألم . . يطلبون السلام .

سمعوا ضجة بمدخل البيت. . توقف إبراهيم . . نهض محمد على قدميه واثبا . . لكن إبراهيم كان أكثر خفة منه وانطلق نحو الباب .

لم يكد يصل إلى المدخل حتى وقف جامدا. .

_ريهام!

_إبراهيم!

_ريهام! جهاد! لقد عدتما! ريهام تعالى هنا!

ـهه. . مهلا . . مهلا ! أنا . . نحن . .

_آسف. . آسف. . آسف! الأربع وعشرون ساعة الماضية كانت الأفظع في حسياتي! ريهام . . أنا المخطئ . . أنا . . آسف . . أرجوك . . سامحيني . . أسمكنك مسامحتي ؟ ريهام . . أنا . . بدونك . . بدونكما لا أستطيع الاستمرار في الحياة . .

_ إبراهيم . . أسامحك بالطبع . . بالطبع أ . . وأنا التي جئت لأطلب منك السماح . . أعنى أ . . أنت على حق . . من حقك التصرف كما يحلو لك وأنا لست سوى امرأة شرسة . . ليس لى الحق في أن أملى عليك ما تفعله وما لا تفعله . . أنا آسفة . .

ـ لا لا لا ! لك كل الحق يا ريهام في توبيخي وفي قول ما يجب عليّ ١٤٢ عمله . . اسمعيني . . أنا المخطئ . . هذا كل ما في الأمر! لن أفعلها ثانية . . أبدا أبدا . . أعدك بذلك! قولي لي إنك ستقلقين عليّ دائما وأنك ستوبخينني لو عدت متأخرا إلى البيت دون إخطاركم!

_ لا . . بل أريد الاعتذار عن رفع صوتي و . .

_الآن . . لن تعودا للعراك ثانية ، على من كان مخطئا ومن كان على حق!

_محمد! تعال هنا. . لم نرحل سوى يوم، لكنى أشعر كما لو أنى لم أرك منذ شهر. . ورامى . . أين هو؟

_أهلا يا رامى . ما هذا . . أحدث شيء أثناء غيابنا؟

_حسنا. . نعم. هذا أحمد. لقد قابلته بالمخيم القريب. . لقد أتوا من قرية أحتلت .

_أهلا! أنا ريهام. . وهذا أخى جهاد. جهاد. . تعال. . قَدم نفسك! _أهلا . . أهلا يا أحمد.

_أهلا . . هل أنتما صديقان لإبراهيم؟

ـ نعم. . و لرامي ومحمد. لكن كم تبلغ من العمر؟

_ثمانية عشر عاما.

_كم أنت صغير!. . حسنا . . كان ينقصنا شخص شاب هنا . . أعنى أننا كلنا في العشرينيات من عمرنا لكننا مملون بشدة . .

_لكن يا ريهام. . أين ذهبتما؟

_آه.. أخذنا نتسكع قليلا.. قضينا الليلة في مخيم للاجئين.. شيء عجيب.. الناس يموتون.. الناس يعانون.. لكنهم لا يترددون أبدا في مساعدة الآخرين.. شعرت بفخر عظيم بكوني فلسطينية.. لكني كنت في حاجة إلى أن أكظم غضبي.. فقد دفعني إبراهيم هذه المرة - بحق إلى قمة الغضب.

_حسنا يا إبراهيم . . لا يمكنك أن تتخيل كيف كان يومنا؟! لقد قضت اليوم بطوله تشتمك . . وأخيرا جلست على الأرض وأخذت تبكى .

_أسكت يا جهاد!

_ما بك يا ريهام. . لا أحسبك تخجلين من الاعتراف بأنك كنت تبكين، وأنك كنت تقولين أنتم عالم من . . .

_ تعال هنا أيها الشقى!

_ آه . . كم افتقدنا صراخك يا ريهام . .

ـ لا . . لكن ماذا تريد قوله يا رامي . . من فضلك؟

_ لا شيء . . لا شيء . . أليس من الأفضل أن تعدين شيئا نأكله؟

_هأنا ما كدت أعود إلى البيت، فإذا بكم تعاملونني كخادمة ثانية. أتساءل إن كنت قد أحسنت عملا بالعدول عن قراري!!

ضحكوا . . ذهبت ريهام إلى الحجرة التي أخلاها لها محمد حين استقرت عنده . . رتبت أغراضها . . وعادت إلى المطبخ لتجهيز العشاء .

جلس جهاد مع سائر الرجال وبعد بضع دقائق من الحديث عادوا إلى قراءة القرآن.

وبعد أن فرغوا من ذلك مباشرة . . أخذ جهاد إبراهيم جانبا وسأله عن أحمد . . فحكي له إبراهيم قصته .

كانت تلك بداية مرحلة سعيدة. اندمج أحمد بسرعة مع المجموعة وانتهى به الأمر أن صار المهرج الذي يسخر من الكل. . كان يسخر من ريهام لأقل شيء ويدبر المقالب مع محمد.

وجد إبراهيم عملا في جزارة واستعاد بشاشته . . كان يخرج صباحا ويعود مساء . . كانوا يأكلون سويا ، ثم يتناولون الشاى أثناء تبادل الحكايات حول ما فعلوه طوال اليوم .

بدأ جهاد في الذهاب إلى المستشفى مع رامي ومحمد. . لكن ريهام لم تكن وحدها بالمنزل؛ لأن أحمد كان يجلس معها.

لم يعد أحد يتشاجر مع الآخر . . وبدأت الجراح تلتثم . .

كان أحمد يفكر فى أشجان كل يوم. . وأحيانا كان صوته يتكدر ووجهه يبدو حزينا. . وعيناه تفقدان بريقهما . .

كانت تلك الحالات تدوم دقيقة أو يوما كاملا. .

إبراهيم كان يعلم أن تلك فقط مسألة وقت. .

كان يجاهد في طرح مواضيع تجذب اهتمام أحمد ليشغله عن التفكير في الماضي . .

وعن إيلام نفسه . .

لكن كان يبدو أنه لا الإيمان ولا العمل ولا الحب كانوا كافين . .

فَهِم إبراهيم أن تلك كانت سمة الجيل الجديد. .

هكذا كانوا يكبرون. . مغمورين بالألم وبالغضب . . وأنه كان من النفاق والظلم انتقادهم لرميهم للحجارة أو سعيهم للموت حتى يصير واشهداء . . كان ذلك ظلما كبير ا . .

فكيف يمكن ـ لإبراهيم ـ أن يأخذ على أحمد يوما لجوءه للعنف الذي كان ليستخدمه ـ بالتأكيد ـ ذات يوم ضد الإسرائيليين؟

سَهُلٌ جدا انتقاد الذين يستخدمون العنف.

مع نسيان أنهم كانوا من قبل ضحايا لأشخاص مارسوا عليهم العنف . .

وأنهم بدورهم يستخدمون العنف لشفاء غليل الغضب المتفجر بداخلهم بفعل العنف الواقع عليهم. .

إنها دائرة العنف. .

التي يصعب وقفها. .

ربما يستحيل وقفها..

لكن هل هناك حقا رغبة في وقفها؟

هل هناك اهتمام بوقفها؟

تساءل إبراهيم كثيرا ، وكان استنتاجه الدائم هو أن فخ العنف. .

كان مناسبا لمصالح الكثير من الناس . .

لدرجة يصعب معها وقفه يوما.

أحيانا حين كانت كراهيته للعدو تزداد حدة لدرجة عنيفة كان يتناول المصحف بين يديه ويتلو على أصدقائه الآيات الكريمة:

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَصَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمين ﴾ .

حررهم الله وأنقذهم وهكذا يشكرونه ا بقتل أبنائه! إنهم حقا ظالمون!

فى تلك الأوقات . . كان إبراهيم يرفع صوته . . وعيناه تلمعان . . وكان يترك نفسه وتأخذه الحمية . . ولا يدرك إلى أى درجة كان يشبه أباه ساعتها . . يكاد يكون مثله تماما . . ولا يلاحظ حتى ارتعاش صوته . .

كان ذلك يخيف الآخرين بعض الشيء. . لكنهم كانوا ينصتون إليه بانبهار. .

كان لذاك الصوت قوة مغناطيسية تجذب الجميع.

الحرب كانت مستمرة. .

كان ذلك في ١٩٩٦ .

الاحتلال اليهودي كان مستمرا و . .

في أبريل . . في لبنان . . وقعت مذبحة للمدنيين في قانا .

قرأ إبراهيم في الصحف أن الضحايا الفلسطينيين يتزايدون . .

كما أن المستوطنات اليهودية تتسع . .

أن كيلومترات وكيلومترات من الطرق كانت تنشأ فقط لاستخدام المستوطنين والجيش . .

وأن الاف الهكتارات من أراضي الضفة الغربية كانت إسرائيل تنتزع ملكيتها.

ذات يوم وصل أحمد إلى البيت مغتاظا ساخطا. . يقول. .

إنهم محرومون من الماء دائما. . وبالإكراه. .

قرأ أن في غزة كل فرد من الستة آلاف وخمسمائة يهودي بالمستوطنات يستهلك سبعة أضعاف الماء الذي يستهلكه كل واحد من المليون وماثتي ألف فلسطيني.

ومع ذلك بدأ الشباب يقللون من التفكير في الحرب وفي الضحايا كما لو كانوا يسعون لحماية أنفسهم من الألم . . وأخذوا يُركزون على حياتهم الشخصية .

بدأ إبراهيم في الكتابة. . لم يعرف بالضبط هدفه من ذلك ولم تكن في ذهنه أفكار واضحة . . لكن بدا له أن المهم هو التعبير عن أحاسيسه ومتاعبه اليومية . . حتى يتفادى أن يكون وقحا وعدوانيا مع الآخرين .

كان يفتقد نضالا بشدة . . حضوره القوى الرصين . . صدقه . . خبرته . . وحبه الثابت غير المشروط الذي غمره به دائما وهو يعامله كأخ ويشاركه كل لحظة . . كل موقف . . كل فكرة .

عشر أحمد في ريهام على شيء من أخته، وصارا مرتبطين للغاية . . وصار يتقبل اللوم والنصح منها بتواضع أكبر .

فى شهر رمضان من ذلك العام صاموا كلهم معا . . وأراد رامى أن يصوم معهم مع أنه لم يكن مسلما .

كانت فترة جميلة جدا . . كانوا يقضون معظم أوقاتهم في الصلاة . . وقراءة القرآن الكريم . . وفي النقاش بنبرة هادثة دائما .

بدأ أحمد يشعر بتفاؤل أكبر في الحياة. . ونجح في استعادة إيمانه بالله الذي بدا عليه أنه فقده في الأوقات السابقة . .

توقف عن إلقاء اللوم على ما حدث له وعن الاقتناع بأن الإيمان لا يكفي لتخطى المشاكل . .

رأى إبراهيم أن أحمد كان بصدد تطوير أسلوب حياة وفكر خاص به وحده . . وكان فخورا به كما لو كان ابنه مع أنه كان يصغره بسبع سنوات فقط .

كتب إبراهيم في تلك الفترة:

المدأت أفكر أن الأوهام هى فى الواقع بديل جيد لمواجهة هذا الموقف . . فنحن غيل أحيانا إلى التعامل بشكل مباشر جدا مع المواقع . . وذلك يجرحنا . . فلا شك أن البحث عن الحقيقة ليس الشيء الأفضل دائما . خاصة أننى فى هذا الوقت أدرك إلى أى درجة يمكن للأحلام والآمال أن تهدئنا . . فالأشخاص الذين يحيطون بى يلجئون إليها كما لو كانت درعا للأمان . لو حاولت للحظة أن أنسى أن وطننا يحتله شعب من المغتصبين . . وأن أبناء شعبى يموتون بإيقاع متسارع لا يرحم . . لو حاولت أن أنسى أن العالم يشاهد ما يحدث لنا دون أن يتحرك . . وأن الناس لم يعودوا يذكروننا . . لو حاولت أن أنسى أن هناك من يسحب الهواء الذي أتنفسه والقلب الذي أحيا

به.. لو حاولت أن أنسى كل هذا لأمكننى القول بأن كل شيء على ما يرام. لقد طورت نوعا غريبا من الاستسلام.. أحاول إخفاء خوفا من انتشار عدواه بين الآخرين.. وتوقفت عن التفكير في أننا يمكننا أن نقاتل الأعداء باسم الجهاد. لا شك أننا محكوم علينا بالعذاب إلى الأبد.. لا شك أن قدر شعبنا ألا يكون له أرض.. لا شك أنه لم يكتب في أي مكان أننا سننتقم للأخطاء التي أرتكبت في حقنا.. إذا فالعزاء الوحيد هو الحياة الآخرة.. الجنة التي سيمنحنا الله وحده إيها. أحترف أنه في تلك المرحلة تفقد الحرب كل معنى.. وأن الشيء الوحيد الذي يهمني الآن.. هو كسب منزلة صغيرة بالقرب من الله عز وجل.. مع الشهداء والأطفال والنساء الذين تم قتلهم».

_ إبراهيم . .

⁻نعم يا ريهام.

⁻ أفتقد نضالا بشدة . . دائما ما أفكر فيه .

ـ أنا أيضا.

ــ هل تعتقد أنه سيعود؟

ـ لا أدرى . . لا أدرى .

بدأ رامي يعود متأخرا بالليل. . كان يخرج من المستشفى، لكنه لم يكن يعود بعدها إلى البيت مباشرة. .

لم يعرف أحد أين كان يذهب بالتحديد. .

ولم يجرؤ أحد على سؤاله. . !

ذات يوم عاد إلى البيت في منتهى السعادة. . وبَدَّل ملابسه على عجل ثم. .

خرج من جديد قائلا ألا ينتظره أحد على العشاء. .

صار غريب الأطوار . .

كان متقلب المزاج ما بين فترات مرح غير مفهوم سببه . .

وأوقات أخرى من حزن وكآبة. .

كانوا كلهم يتوقفون عن الكلام فور ظهوره بالمكان. .

أو يبدو عليهم الاضطراب والحيرة. .

كان يبدو إنسانا آخر . .

أحيانا كان مرحا ظريفا . . يدبر المقالب ويُسلى المجموعة . .

لكنه كان يتحول أحيانا إلى شخص عبوس لا يطاق متبرم الوجه. .

يعامل من يحاول مخاطبته بعنف وفظاظة. .

ذات مساء قرر إبراهيم بحث أمره مع الآخرين _ مستغلا غيابه . .

_يا أولاد. . أريد أن أتكلم معكم بخصوص رامي. . ألا تلاحظون أنه يتصرف بغرابة؟

- -رامى! لماذا . . ماذا حدث؟ أنا أراه طبيعيا للغاية!
 - كفي هزلا يا أحمد. الأمر مهم.
- إبراهيم على حق . . الأمر غير محتمل . لابد أن نفهم ما حدث له .
- -ريهام . . أنا لست من هذا الرأى . أعنى أنها حياته . ليس لأننا نسكن في نفس البيت أنه من حقنا أن نعرف أين يذهب وماذا يفعل؟! فهو في النهاية في الثانية والعشرين من عمره . . لم يعد صغيرا . . أليس كذلك؟
- ـ لا يا جهاد. . لا أوافقك. يجب أن نفهم ما يحدث له. . قد يكون شيئا خطرا. هذا واجبنا!
 - _محمد . إنك تقول هذا لأنك . .
- _أقول هذا لأنى أعرفه منذ أربعة أعوام! أنا قلق عليه. . هذا كل ما فى الأمر! لا أريد أن أتدخل فى شئونه الخاصة ، لكنه كالأخ بالنسبة لى . . بل إنه أخى بالفعل . . نحن كلنا إخوة . أعتقد أنه يجب علينا تحرى ما يحدث له .
- حسنا. . أرى أن الغالبية مؤيدة . إذن سأغادر الجزارة مبكرا غدا وسأذهب إلى المستشفى وأنتظر حتى يخرج . إنه عادة ما ينتهى من العمل فى حوالى الخامسة . . أليس كذلك؟ حسنا . . سأنتظره بالخارج ثم . . حسنا . . ثم . .
- ـثم ماذا يا إبراهيم؟ لا . . ألا تدرك ما تقول؟ تريد أن تتبعه! ليس هذا من حقك!
- كفى يا أحمد. سنفعل ذلك لمصلحته. إذن فأنا. . حسنا سأتبعه ١٥٢

وسأرى إلى أين يذهب. لو اكتشفت أنه يذهب إلى القهى للعب الشطرنج أو يذهب إلى أحد أصدقائه.. سأعود إلى المجزرة وسينتهى الأمر عند هذا الحد.. ولوكان هناك شيء آخر في الأمر.. سنرى ماذا سنفعل.

ـ لا وألف لا . . انس ذلك تماما! ألا تدرك أن ما تريد عمله شيء مخز وغير أخلاقي؟ إذا أصررت على ذلك سأضطر إلى . .

ـ ستضطر إلى ماذا؟ ماذا تريد أن تفعل أيها التعيس؟

ـ حسنا. . سأضطر إلى إخبار رامي بما تدبرونه خلف ظه. .

_ يا لك من وضيع! تعال هنا! سأ. . سأقضى عليك، أنا!

- النجدة. . امسكه يا محمد! أآآه! إنه يريد قتلى حقا. ريهام أرجوك. . قولى شيئا!

_محمد. . اتركني أذهب حالا!

ـ ماذا تريد أن تفعل؟

ـ أريده أن يأخذ ما يستحق . . سألقنه درسا . .

_ لن تلقني شيئا على الإطلاق! لست أبي ولا حتى أخي. . ليس من حقك أن تعلمني . .

_ تافه . . ! لست سوى طفل دنىء مدلل! كيف تسمح لنفسك؟ أنا أكبر منك سنا بكثير . . يجب عليك أن تحترمنى! تعال هنا! محمد قلت لك أن تتركنى! اتركنى كي أوسعه ضربا!

_محمد أرجوك امسكه جيدا أرجوك!

_اعتذر لى! أيها الوقح السافل! اعتذر لى حالا! أقْسِم أنك لن تقل شيئا لرامى . . وإلا والله العظيم سأكسر لك ذرا . .

ـ كفي الآن يا إبراهيم. . إنك حقا تبالغ!

ـ لا تتدخلي يا ريهام. أحمد. . اعتذر لي.

علام أعتذر؟! أنا أقول ما أريد! و . . حسنا . . حسنا . . لا . . أتوسل إليك ألا تضربني . . حسنا حسنا؟ . . لن أقول شيئا لرامي . . سأغلق فمي وسأكون مؤدبا!

ـ همم. . هكذا تكون تربية تافه مثلك . حسنا . . والآن كلنا متفقون وليعد كل واحد إلى عمله . . غدا سنكتشف ما يحدث لرامي .

فى اليوم التالى استأذن إبراهيم ساعة من العمل كما قال. . ووقف أمام المستشفى ينتظر خروج رامى ، وهو يختبئ جيدا خلف كابينة تليفون . .

خرج رامي في موعده المعتاد ونظر حوله . .

فغاص إبراهيم خلف الكابينة، وازداد توترا. .

ماذا لو رآه رامي؟

ماذا لو لاحظ وجوده؟

کيف يکون رد فعله؟

سيرحل هو الآخر مثل نضال؟!

أم سيقطع ببساطة علاقة الصداقة الجميلة التي تربطهما؟!

لما رأى رامي يسرع نحو محطة الأتوبيس. . طرح أفكاره جانبا وهم بلحاقه . .

استولت عليه الحيرة، حين فهم أن رامي سيركب الأتوبيس. .

كيف سيتصرف لركوب الأتوبيس هو الآخر دون أن يراه صديقه؟

قرر أن يجازف بالكل، ليربح الكل، وضغط على قبعته الصغيرة فوق رأسه على أمل أن يخفي على الأقل جزءًا من وجهه. .

وتقدم بخطوات بطيشة، بحيث يظل على بعد حوالي عشرة أمتار..

ولما وصل الأتوبيس. .

انتظر أن يصعد رامي أو لا، ثم انطلق كالسهم وصعد هو الآخر . .

ذهب رامي إلى الداخل، وجلس على مقعد بآخر صف. . أما إبراهيم فجلس بالمقدمة. .

مروا بمستوطنة يهودية تنبض بالحياة . . تملؤها محال وحدائق وناس يشترون ويدخلون ويخرجون من المحال . صبية على الألواح الزلاجة . . عشاق في المطاعم . . عائلات في الشوارع . هنا لم تكن الحرب تبدو سوى حادث بعيد . . كلمة بلا وزن . . مشكلة لا تعنى أحدا . .

كان الناس يرتدون ملابس جميلة. . وتبدو عليهم النعمة . . ١٥٥

مال. . صحة . . سلطة . .

كان يصعب تصديق أنه على بعد بضع كيلومترات قليلة هناك قرى فقيرة، حيث بشر يتألمون ويموتون من الجوع والبرد. . بل أسوأ من ذلك . . رميا بالرصاص . .

كان يصعب تصديق أن الحياة الرغدة لهؤ لاء الناس يمكنها التعايش مع فقر شعب ممزق بالجراح والألام. .

كان إبراهيم غارقا في أفكاره حتى أنه كاد ألا يرى رامي، وهو ينزل في عُجالة . .

نزل هو أيضا بسرعة، وضغط أكثر على قبعته الصغيرة وأخذ يتابع رامي...

بداله سلوكه غريبا. .

كان يراقب كل ركن من أركان الشوارع، كما لو كان يخشى أن يتبعه أحد. . كان يفرك يديه . . ويَحك ذقنه . .

خشى إبراهيم أن يكون رامى قد أحس بأنه يتبعه. . فاستدار ماشيًا في الاتجاه المعاكس. .

وانعطف نحو الزاوية . . ثم توقف ومد رأسه ليري إن كان رامي ينظر خلفه . .

لكن رامي اختفي. .

شعر إبراهيم بالهلع يجتاحه. .

وأخذ يلتفت وينظر حوله بجنون في كل الاتجاهات. .

107

ثم لمح أخيرا صديقه في نهاية الشارع. .

فَهَمّ باللحاق به . .

مشى خلفه حوالي مائتي متر . . ثلاثمائة متر . .

ثم دخل رامي محلا. .

أسرع إبراهيم خلفه . .

دخل المحل هو الآخر . .

كان هناك ضوء خافت بالمكان. . وفتيات يرتدين ملابس شبه عارية ، وأولاد يدخنون ويحتسون الخمر. .

نظر إبراهيم حوله بدهشة وفضول. . !

لم يتصور أبدا أنه على بعد كيلومترات من المكان الذي يعيش فيه يوجد مكان يختلف كل الاختلاف عن كل الأماكن التي يرتادها مع أصدقائه . .

ولمجرد رؤيته للمخدرات والخمر والفتيان والفتيات في كل الاحتمالات المكنة بنت _ ولد . ولد _ ولد . . بنت _ بنت _ ولد . . بنت _ ولد . . ولا بنت _ ولد . . ولا مجر . .

اجتاح إبراهيم شعور بالاحتقار العميق لهؤلاء الشباب، الذين ضلوا الصراط المستقيم. .

وفقدوا دينهم أيضا بلا شك. .

لكن في أثناء ذلك كان قد فَقَد رامي . .

نظر حموله ولمحه أخميرا في مكان أبعـد. . كان بصحبة فـتاة يهو دية . . طويلة . . نحيفة جدا . . ترتدى جونلة قصيرة جدا وبلوزة ضيقة . . تضع الكثير من مساحيق الزينة . .

شعرها قصير . . أحمر . . واضح أنه مصبوغ ومغطى بمادة مثبتة للشعر . .

انزعج إبراهيم منها . . كانت تلامس رامي بكثير من التبجح . . لم يصدق أن رامي يمكن أن يتورط مع مثل هذه الفتاة . .

ولما ناولته شيئا ليدخنه . . لابد أنها كانت لفافة مخدر . . خشى أن سدية الذي كان بعد فه تمام المعدفة . . أه بمعنى أصح الذي ظن أنه

الصديق الذي كمان يعرفه تمام المعرفة . . أو بمعنى أصح الذي ظن أنه يعرفه جيدا . . خشي أن يقبلها منها . .

لكن لحسن الحظ رفض رامي السيجارة بحركة جافة وأمسك بيد البنت وسحبها إلى الباب الخلفي . .

تبعهما إبراهيم خارج المحل. .

وجد نفسه فى شارع مهجور . . والشابان على مقربة منه . .

هَمّ إبراهيم يكور نفسه خلف صندوق للقمامة . .

كان الاثنان يتكلمان بصوت واضح، لكن بلكنة أمريكية. .

جاهد إبراهيم أن يفهم ما يقولان مسترجعا الإنجليزية التي تعلمها بالمدرسة . .

ـ سارة. . أخيرا أراك. . أتكلم معك. . لو تعرفين كم افتقدتك في تلك الأيام! كنت أشعر كأني محبوس في قفص. أخبريني . . كيف حالك؟

- كالمعتاديا رامى . متعبة . . محبطة . . مستسلمة . . أحيانا أتساءل كيف تخالط فتاة مثلى؟ أريد أن أقول . . أنت شخص . . جذاب جدا . . لطيف . . ذكى . . عميق . . أما أنا . . فليس عندى أى شىء أضيفه لك . لست سوى طفلة مدللة .
- _ لا . . لا تقولى هذا . . أنت عندك الكثير لتعطيه . . أنت فريدة . . أوكد لك . . ولهذا أريد أن أقضى باقى حياتي معك .

_كيف؟ ماذا تريد أن تقول؟

_حسنا . . أنا . . تعرفين أننى لم أعد أحتمل تلك اللقاءات الخفية . . بدأت أسعر بالحاجة لرؤيتك . . معانقتك . . كل يوم . . و . . حسنا . . باختصار . لدى صديق في خان يونس ، وقد عرض على آن أذهب عنده . سيسافر إلى القاهرة وسيترك شقته . . أريد أن تأتى معى . .

_آتى معك؟ أنا وأنت وحدنا؟

نعم. أريد أن أتزوجك. وأن تصيرى زوجتى . وأن يكون لى كل الحق في العيش معك، ولكن كى نتمكن من ذلك يجب أن نرحل من هنا. فما رأيك؟

_أنت مجنون والله! خان يونس. أنا لا أعرف حتى أين تقع! ثم . . . ماذا أقول لأهلى؟! لا يا رامى . . أنا أحبك لكنك الآن تهذى! كيف يمكننا الرحيل من هنا والعيش معا؟ ثم ألست تقيم مع أصحابك؟

نعم. . وأحبهم حبا جما. . لكن ذلك يبدو لى شيئا مؤقتا! يوما ١٥٩ ينسحب واحد. . و بعد ذلك يتشاجر اثنان . . يبدو أن الصداقة لم تعد كافية لإبقائنا متحدين . لابد أنه التوتر . . لابد أنه الخوف . . على أية حال أنا أريد أن أرحل معك . معذرة ، لكنى ظننت أن أهلك متفتحين فكريا . ألا يمكن أن تقولى لهم أنك ستسافرين مع بعض الأصدقاء وحسب؟

آه. . من فضلك! أى أصدقاء؟ رامى إنك تجعلنى فى حيرة . . لكن من أين أتيت بفكرة خان يونس هذه؟ لابد أنك لا تدرك ضخامة ما تقول. تُفجر قنبلة ثم تغضب لأننى لا أوافقك فى الحال . . حاول أن تضع نفسك مكانى!

- لماذا. . أتعتقدين أن هذا بالأمر السهل على ؟! أنا - ببساطة - طلبت منك أن نرحل؛ لأننى لم أعد أحتمل هذا الوضع! أتتخيلين كم سيكون ذلك رائعا! أنا وأنت وحدنا بلا حواجز بلا نظرات حذرة . . بلا تخفّ . . تخيلى كم سيكون ذلك جميلا في الصباح ، أن يصحو كل واحد فينا وينظر في عينى الآخر ، وهو يعو ف أنه حر أخد ا!

ـ لا أدرى . . لا أدرى . أرجـوك يا رامى لا تربكنى هكذا . لا أقـول إننى لا أحبك بالقدر الكافى للرحيل معك . . كل ما فى الأمر أنك تطلب منى شيئا مهما وخطيرا . . لا يمكننى أن أقرر هكذا . اعطنى الوقت للتفكير . . مجرد وقت .

ـ حسنا . . أنا موافق . . لكن الانتظار سيكون طويلا ومؤلما يا سارة .

يظن الإنسان أنه يبنى طمأنينته على حقائق أكيدة . .

صلبة جدا. . راسخة جدا. .

وعندما تنهار . .

لأنها إن عاجلا أو آجلا تنهار . .

يعود بَغْتة إلى الواقع . .

بمشاعر ملتهبة تجرح القلب الأعزل..

الذي ظن أنه وجد السلام. .

يعود بَغْتة إلى الواقع. .

أحس إبراهيم أنه كان غبيا. . كيف لم يفهم؟!

كيف لم يفهم أن رامي كان عاشقا؟!

الحب هو الذي غيره . . !

كان يعود متقلب المزاج بسبب تلك الفتاة . .

ولم يفهم ذلك . . !

لكن في الحقيقة فإن أكثر ما آلمه، هو أن يعرف أن قصتهما كانت مستحيلة. .

كانا سيواجهان صعوبات لا نهاية لها. .

قصتهما كانت مستحلة..

ورامي كان يعاني لذلك . .

وسوف يعاني أكثر . .

كان يعرف هو الآخر إلى أى مدى كان يستحيل فعليا تخطى الحواجز . .

كان يعرف هو الآخر أنه وقع في حب من لن يستطيع الزواج منها أبدا. .

وكانت تلك إحدى الصور المؤلمة الظالمة للحرب، وللكراهية بين شعبين. .

لمس إبراهيم اليأس في صوت رامي. .

العجز . . الغضب . .

لرجل يُحب. .

لكنه يصطدم بحواجز أمام حبه. .

كان حزينا لرؤية شابين عاشقين لهذه الدرجة غير قادرين على الحب بحرية. .

لكن الحب يولد أيضا، حيث توجد الحرب. . الحب هو الزهرة التي تنمو على أرض قاحلة ومقفرة . .

لأن الحب هو الأمل. .

لكن أين السلام؟!

اقبلوه. .

اقبلوا العيش في سلام مع إخوتكم . .

يا إسرائيليين. . يا فلسطينيين. .

يا بني الإله الواحد. .

أين السلام؟!

السلام! إبراهيم يعرف جيدا أن الحكومة الإسرائيلية ليست راغبة في السلام؛ لأن السلام يعني مفاوضات سلام. . يعني تسويات. . يعنى اهتمام . . يعني إنسانية وإحساس . . لكن الإسرائيليين يريدون الأراضى . . كلها . . يريدون أرض إسرائيل . . يريدون تحقيق حلم إسرائيل الكبري . . لن يرضوا بالسماح للفلسطينيين بإقامة دولتهم . . لم يحترموا أبدا المعاهدات . . يحاولون أخذ كل شيء . . كل شيء . . رباه . . العالم لا يدرك ذلك . . يتساءل إبراهيم . . كيف لا يدركه؟! ويجيبه صوت بداخله أن العالم لا يريد أن يدرك ذلك . . لقد اتخذ قراره منذ زمن بعيد. . قراره بأن يتظاهر بأنه ما من شيء حدث، وبأن يشيح بناظريه بعيدا. . قرر السماح للإسرائيليين بأن يفعلوا ما يشاءون. . اختار الحرب. . اختار الموت. . اختار التخلي عن شعب مهمل وحده منذ الأزل. . إبراهيم يعرف ما سيحدث. . تلك هي ثاني إبادة جماعية لشعب في التاريخ. . أصحاب السلطة . . المسئولون الأوائل عن هؤلاء الموتى . . لم يتعلموا درس الألم . . لا. . بل قرروا تعذيب شعب آخر مثلماتم تعذيبهم . . وأن يُدَفِّعوا ثمن آلامهم بشر يائسون . . بائسون . . فقدوا كل شيء . . ماعدا شيئا واحدا. . إيمانهم . . ولهذا ينتقدهم الناس . . لأنهم أعطوا اسما لحربهم . . الجهاد . . لأنهم قرروا ألا يفقدوا الإيمان بالله . . ولهذا يُنتقدوا . . ويُقتلوا . . ويُعذبوا . . وها هي معسكرات الاعتقال . . لا. . لا تبحث عنها بعينيك . . لن تراها . . تلك المعسكرات موجودة في ذاكرة اليهود، الذين يديرون حكومة غير شرعية . . الذين يحيون جنون مستشار ألماني أسبق في عقول هؤلاء اليهود الذين يبدو أنهم يمثلون كل يهود العالم، حتى ولو لم يكن الوضع كذلك . . إبراهيم يعرف. . يؤمن. . يأمل أنهم ليسوا كلهم كذلك. . لا يمكن أن يكون شعب بأكمله يؤمن بذلك . . لا يزال هناك أشخاص يؤمنون . . أشخاص لا يخفون المأساة خلف قناع من الوهم. . لكنهم يواجهون الواقع . . مثل تلك المرأة . . تلك المرأة التي شاهدها ذات مساء في التليفزيون في منزل جاره رياض . . تلك المرأة التي صرحت باسم الجالية اليهودية بسويسرا ـ وهي تضع يدها على قلبها ـ إن حكومة إسرائيل لا تمثلهم في شيء. . إنهم يحتجون على العنف الذي يمارس ضد الفلسطينيين . . إنهم يهود ، لكن ليس كل اليهود يكرهون الفلسطينيين. . وليسوا كلهم يريدون القضاء عليهم. . إذًا هؤلاء الأقوياء لايمثلون إرادة كل يهودي في العالم، ولكنهم يملكون القوة التي تجعلك تصدقهم . . يملكون القوة . . عندهم معسكرات اعتقال في ذاكرتهم. . لكنهم الآن هنا لا يمكنهم أن يقيموها إلى الأبد. . ولا أن يقذفوا فيها بالفلسطينيين . . لأن كاميرات التليفزيون اليوم تصل إلينا. . ولأن العالم عندها سيضطر إلى انتشال نفسه من الفتور اللعين الذي يغرقه. . الفتور الذي جعله يقبل كل هؤلاء القتلى . . لأن العالم سيضطر إلى أن يستيقظ . . رباه . . السلام لا يُصنع مع الموتى .

> كان إبراهيم يعرف أن ساثر العالم يفكر مثل إسرائيل . . لهذا حاول أن يُفَهِّم أصدقاءه أن يحترسوا . .

يحترسوا من مشاعرهم . .

تبا. . يحترسوا من الحب. .

الحب..

لأنه سيجعلهم يعانون. .

يوما ما. .

عاجلا أو آجلا. .

مثلما بحدث الآن.

تذكر إبراهيم وهو عائد إلى الجزارة. . الشعر الأحمر القصير . .

الأحمر القصير..

والمسكينة العاشقة سارة . . والعاشق المسكين رامي . .

رامي . .

والشعر الأحمر القصير..

الشعر الأحمر القصير..

الشعر الأحمر القصير..

حتى اللحظة التى أدرك فيها أن كل هذا اللون الأحمر الذى يراه لم يكن شعر تلك الفتاة!!

ولكنها دماؤه!

- -إبراهيم! ماذا فعلت بيدك؟! ما كل هذه الدماء! جهاد! احضر لى قطنا و. . آه . . يا إلهى . . الشاش . . المطهر! أسرع! ماذا حدث لك؟
 - لا تقلقى يا ريهام . . ليست إلا دماء قليلة .
- ماذا؟ لا أقلق! انظر كل هذه الدماء. . هذا جرح عميق جدا كيف حدث هذا؟!
 - يا إلهى! ماذا يحدث يا إبراهيم؟!
 - لا تقلق يا محمد . . لم يحدث شيء .
 - -أكان ذلك جنديا؟ هـل قابلت أحـدا؟ هـل آذوك؟ انظـر إلى هـذا! يا إلهي. . . أيؤلمك يا إبراهيم؟
 - اهدأ يا محمد . . اهدأ . . كل شيء على ما يرام . . لم أقابل أى جندى . . وأسند ريهام وإلا سيغمى عليها . . كنت شارد الذهن في الجزارة . . وبدلا من أن أقطع اللحم قطعت أصبعي!
 - -يا إلهي! ولم ينفصل؟
 - بعد الشر ينفصل! ما الذي تقولينه؟ إنه قطع عميق. . هذا كل ما في الأمر . . الأصبع لا يزال في مكانه . . لحسن الحظ!
 - _إذن فقد ذهبت يا إبراهيم. . ! لم يحدث لك شيء أثناء تتبعك له؟!
 - صه . . اسكت يا غبى! ألم تر أن رامى فى الصالة؟ اسكت . . اسكت . .

_ إبراهيم! يا إلهي . . ماذا حدث لك؟!

_إبراهيم!

_يدك! آه يا إلهى!

اهدأ. اهدأ. جهاد. رامی . أحمد . اهدءوا . لقد جرحت في الجزارة . لكن الآن كل شيء على ما يرام . . أؤكد لكم . . يلزمنى فقط ضمادة على يدى . . لكنى بخير أؤكد لكم . . لا تقلقه ا .

_ يا إلهي . . لكنه قطع فظيع! كيف فعلت ذلك بنفسك؟!

_كنت شارد الذهن بعض الشيء أثناء تقطيع اللحم. .

_شارد الذهن! كم أنت أحمق! أيمكن الشرود أثناء تقطيع اللحم؟! إذن فلنُقَلِّم أظافرنا ونحن شاردون.. هكذا يمكننا قطع أصابعنا أيضا!

ـ كفي سخرية يا أحمد!

ـحسنا. . إنه على أبة حال لم يخسر كل شيء . . كيف يمكنه أن يعمل بجزارة والتفكير في شيء آخر أثناء تقطيع اللحم؟!

ـ اسكت يا جهاد! هل أحضرت لي القطن والمطهر والشاش؟

_هاك ما طلبت.

حسنا. تعال هنا يا إبراهيم. وأنتم. . افسحوا. . قوموا من هنا. . هيا أجلس هنا. . لنرى . . يا إلهي. . كل هذا الدم! لابد من غسل

- الجرح أولا. لا يمكن حتى رؤية القطع . . قولا لى . . رامى . . أحمد . . أيمكنني طلب خدمة منكما ؟ لقد أعددت قائمة بما يجب شراؤه لهلذا المساء فلا يوجد عندنا شيء تقريبا في المطبخ . إبراهيم . أيمكن أن تعطيهما نقودا ؟
- ـ أوووه. . نقـود . . نقـود . . أنزف إلى آخـر قطرة من دمــائى في العمل، وتحدثونني عن النقود! حسنا . . خذ . . امسك يا رامي .
 - اسمعى يا ريهام أرسلي أخاك مع أحمد . . أنا متعب حقا . .
- -جهاد يقوم لى بأعمال أخرى! هيا. . قم تحرك يا رامى . . رافق الجماعة!
- -حسنا. . حسنا. . تعال يا أحمد. هيا بنا. . فَهُم على أية حال يستعبدوننا هنا. .
- يا إلهى . . كم أنا متعب . اليوم في الجزارة نَسِيَ سَيِّد أن . . هل ذهبا . . يا محمد ؟
- نعم . . اطمئني . انتظري حتى أسحب كرسيا . إذن هل ستحكى لنا ما حدث؟ لقد مر اليوم بطوله ونحن ننتظر .
- -انتظروا. . أنا أيضا أريد أن أعرف. لحظة. . هيا يا إبراهيم . . قـد أثبت أنا أيضا.
 - أليس من الأفضل لك أن تذهب لتقشير البطاطس يا جهاد؟
 - صه يا ريهام! أريد أن أعرف ما يحدث لرامي! ماذا إذن؟
 - _ حسنا. . الآن . . هو . . أنا . . حسنا . .

- حسنا! هـل يمكـن أن نعـرف مـاذا يفعل رامى تلك الأيام؟ هيا. . لا تجعلنا ننتظر!
 - ـ حسنا. . في الواقع . . أنا . .
 - _لكن ماذا دهاك؟ ستقول لنا إلى أين تابعته أم لا؟
- لكنى لم أتبعه إلى أى مكان! في الخامسة كنت أمام المستشفى . . خرج هو . . ركب الأتوبيس و . . و هكذا . .

_..نعم!!

ـ نزل في بلدة قريبة ، حيث يسكن واحد من أصدقائه . . يسر . . يوند . . ياسد . .

_يوسف! يوسف ربما!

_هذا هو . . برافو يا محمد . . يوسف! لم يحدث شيء . . دخل بيته . . ثم خرجا في الحال وذهبا إلى المقهى . . لعبا بورق اللعب . . شربا الشاي . . ثرثر ا . . و . .

!!

_وكفى! ثم ركب رامى الأتوبيس، وأتصور أنه عـاد على الفور إلى البيت. . أما أنا فذهبت إلى الجزارة .

ـ لكن في أية ساعة ركب الأتوبيس عائدا إلى البيت؟

- _أظن أن ذلك كان في حوالى الساعة السادسة . . ربما كانت السادسة والنصف . نعم السادسة والنصف أكثر أو أقل .
- ـ وهو عاد إلى هنا قبل السابعة ، إذن فمن المستحيل أن يكون قد ذهب

- إلى مكان آخر بعد ذلك . . عجبا . . وماذا إن كان قد اكتشف أنك تتبعه وغير برنامجه ليضللك؟! لعله لم يكن ذاهبا إلى يوسف ، لكن حين رآك ارتجل زيارة لصديقه!
- دعك من الافتراضات يا ريهام . . لا . . لا . . أنا واثق أنه لم يرنى . . لقد كنت حريصا جدا . . لو كان رآنى لكنت لاحظت ذلك . ثقوا بى . . لم يرنى .
- عجبا یا إبراهیم. أنا أیضا كنت مقتنعا أن هناك شیئا یحدث. . وظننت أننا الیوم كنا سنكتشف الحقیقة. . وعوضا عن ذلك . . لا أعرف . . یمكننی محاولة مراقبته غدا لأری، إن كان سیعود لزیارة یوسف .
- ـ لا! أعنى . . لا . لا يا محمد . . الأمر لا يستحق . . أؤكد لك . سأتكلم معه . . سأقول له إننا لاحظنا كلنا أنه تغير ولا شك أن هناك شيئًا يحدث له . . وسأسأله أن يشرح لى ما يفعل تلك الأيام .
- ـ لا يا إبراهيم! هكذا سيكون حذرا. . سيجد عذرا ما ولن تسنح لدينا بعد ذلك أية فرصة لمعرفة الحقيقة .
- ـ كـلا. . لا تقلقى يا ريـهـام. ثم إننى بـدأت أغـيـر رأيى. . لعلنا أسـأنا تفسير الحالة العجيبة التي مر بها .
 - ـ لا أعرف يا إبراهيم . . ربما كانت ريهام على حق .
- ـ لا يا محمد. . أؤكد لكم أن كل شيء طبيعي. والأفضل هو أن نثق به . . فهو أولا وأخيرا صديقنا رامي الذي نعرفه ونحبه . نتكلم عنه كما لو كان غريبا عنا . . فتى لا نعرفه . لو أن هناك شيئا مُهما فسوف يقوله لنا حتما .

- _حسنا. . لست مقتنعة تماما .
- _ فلنفعل ذلك يا ريهام. . فلنثق في كلام إبراهيم. جهاد. . أنت لم تفتح فمك بكلمة!
- ـ لا . . الواقع . . لا أدرى . . كنت أظن أننا سنكتـشف شـيــــــا . . بينما . . لا أدرى . .
 - ثقوا بي يا أولاد سأكلمه قريبا.

ابتلع إبراهيم ريقه بصعوبة . . أحسه جافا وثقيلا . .

ثقل هذه الأكذوبة . .

ثقل هذه الأكذوبة . .

التي كانت تثقل على قلبه وتكاد أن تخنقه . .

كان القلق مضن...

والغضب والألم يذوبان . .

فى قوة فريدة مدمرة. .

وفور نجاحه في التخلص من رفاقه المتشككين. .

خرج إبراهيم ليستنشق بعض الهواء . .

الهواء البارد لسع خديه . . جفت دموعه بعد أن لامسها نسيم الليل . .

لكن قلقه . . آلمه . .

وقبل ذلك سخطه بقى كما هو . .

شعر بأنه مسئول بشكل ما عما يفعله رامي . .

ربما؛ لأنه كمان الأكسر سنا . . أحس إبراهيم نفسسه مكبلا بالمسئوليات . .

التي كانت عليه نحو كل الآخرين. .

كان حملا ثقيلا جدا بالنسبة لشاب في الخامسة والعشرين من عمره . .

لكن التربية التي تلقاها صنعت منه شخصا جادا وحَيِّ الضمير . .

رىجا بشكل زائد. .

شخصا يتألم بشأن أخطاء الآخرين . .

أو على الأقل بشأن ما يَعتبره خطأ. .

كان يشعر بأنه مذنب تجاه الآخرين على الأقل

كان يعرف الآن أنه قد حرم نفسه من فرصة مواجهة الموقف مع أناس جديرين بالثقة، وراجحي العقل مثله. .

لكن لو عاد الزمان به، لكان قد فعل الشيء نفسه ألف ألف مرة. .

كانت تلك سمة من سمات شخصيته القوية

القاسية والرقيقة. .

المعقدة والبسيطة جدا في الواقع. .

شخصيته التي صار يكرهها. .

ضعيف. .

نام نوما قليلا ومقلقا. .

فى الصباح التالى . . استيقظ مبكرا وفكر فيما عليه أن يفعل . . ثم قرر مراقبة رامي في ذلك اليوم أيضا . .

كان يجب أن يعرف إجابة سارة قبل أن يتصرف بشكل أو بآخر. .

في العمل، كان شارد الذهن متفكرا اليوم بطوله. .

حَرِص فقط. .

على ألا يقطع إصبعا آخر . .

ثم ترك العمل في الخامسة، وانتظر رامي أمام المستشفى. .

ركب الأوتوبيس معه ونزل في نفس محطة اليوم السابق. .

سار خلفه حتى السينما. .

وصلت سارة بعد بضع دقائق. . هذه المرة كانت ملابسها أكثر حشمة . . بنطلون جينز وقميص . . شكلها هكذا، لم يكن فيه ما يوحي بأنها فتاة سيئة . .

أدرك إبراهيم ساعتها أن كل شيء بدا له في الليلة السابقة أقبح بكثير من الحقيقة . .

الشباب. . سارة. . المحل. . المستوطنة اليهودية كلها. .

أحيانا يسهل الوقوع في فخ الأحكام المسبقة . .

وقد أدرك إبراهيم ذلك. .

كان مترددا في السير خلفهما حتى القاعة. . فانتهى بأن قرر أن ينتظرهما بالخارج. .

ندم على ذلك بعد الدقائق الأولى المملة . .

دام الفيلم ساعتين، وخلال الساعتين لم يكف عن التفكير في الكلمات التي سينتقيها لمواجهة رامي. .

لما رآهما أخيرا يخرجان . . اختبأ خلف شاحنة وتابعهما بعينيه . .

سارا طويلا وأخيرا دخملا في حديقة ممتلئة بأطفال يلعبون. . وسيدات ينزهن كلابهن الصغيرة. . وشيوخ يقرءون الصحف. .

جلسا أخيرا على مقعد من مقاعد الحديقة . .

اختباً إبراهيم خلف شجرة بلوط ضخمة . . وهو يحبس أنفاسه ويحرص على ألا يراه أحد . .

_فيلم رائع . . أليس كذلك؟

ـ هه! معذرة . . كنت أفكر . . ماذا قُلت؟

ـ لا شيء . . انس الأمر . هل ممكن أن أعرف ما بك؟ لم أرك قط باردا هكذا . . كما لو كان لا يهمك شيء مما حولك!

_ربحاكان ذلك صحيحا يا سارة. لا شك أن الفيلم لم ينسنى لماذا لا أنام ليلا. . لا شك أن ذلك ينطبق على نزهة أو كلمة نتبادلها من هنا أو من هناك . . ولاشك أيضا أن يوم عمل بالمستشفى أو حتى مناقشة مع أصدقائى، لا يمكنهما فعل شىء . أيكفيكى هذا؟

_ويحك. . لماذا تهاجمنى؟ لقد سألت فقط عما بك! يمكنك_مُهما ١٧٤ كان معاملتي بشكل أفضل، والتوقف عن الحديث معى بتلك النبرة كما لوكنت مسئولة عن كل مشاكلك!

حسنا. . أنت بالفعل المسئولة يا سارة ا أنت التي جعلتني أحبك . . وأنت التي تدفيعينني وأنت التي تدفيعينني للجنون . . إنه وجهك الذي أراه قبل أن أنام . . أنت سبب مشاكلي . . نعم !

_ماذا تقصد من ذلك؟

- أقصد أنه بدلا من أن تظهرى دائما بظهر المترفعة غير المكترثة. . اسمعى لنغلق الموضوع . . حقا . . لنغلق الموضوع . أنا لا أفهمك . . لكنى لا أرغب نهائيا في الشجار . إنها فترة شنيعة . . هذا كل ما في الأمر . لا تطلبي منى أن أتصرف كما لو كان كل شيء طبيعيا . . لأن الوضع ليس هكذا . شعبي يصارع جيشك . . أبناء شعبي يموتون كل يوم . . أصدقائي مضطرون للتعايش مع آلام الماضي . . رفيقتي لا تريد أن تعيش معى . . هذا أسوأ وقت في حياتي .

_ ما هذا. . أنا لا أريد أن أعيش معك؟! لم أقل ذلك أبدا!

ـ لكنك أظهرته لي. وهذا يكفيني.

- لا أفهم . . ماذا فعلت؟!

- أعنى أنه فى أول فرصة لك كى تشبتى لى أننى مهم فى حياتك ، أدرت لى ظهرك. لو كان شخصا ما مهما بالفعل فى حياتك فيجب أن يكون قادرا على جعلك تقدمين على أفعال ميثوس منها. . أو على الأقل عفوية . . مندفعة . الحب هو الاندفاع . . اللامعقول . . وهذا كل ما ترفضين منحى إياه .

- اسمعنى! بأى حق تسمح لنفسك؟ أنت لا تعرف عنى شيئا! لم أحب أحدا مثلما أحبك . . ولم يعاملنى أحد أبدا هكذا! لا أعرف ما تفعل بك أو ما فعلت بك النساء الأخريات . . لكن لا تصدق أن الحب يعنى عدم الإحساس بالمسئولية أو الاندفاع! أنا أحرص عليك أنت الآخر . . أحاول أن أحمى حبنا . . ألا تفهم أنك أيضا تستحوذ على كل أفكارى؟!

ـ لو كان هذا صحيحا، فإنك تثبتين لي ذلك بطريقة غريبة!

- وكيف يجب على أن أثبته ـ إذا سمحت؟

ـ خان يونس مثلا! ماذا قررت بشأن ذلك؟ هل ستأتين معى؟

-اسمع . . أنا . . أنا لم أقرر بعد . . إنك حقا تطلب منى شيئا ليس بالسهل على . أحتاج للمزيد من الوقت . . ثم إنك لم تحدثنى بالأمر سوى بالأمس .

ـ وقت. . وقت! إنها مجرد حجة لعدم الرد!

- فكر كما تريد. يجب أن أذهب الآن. . كل مرة نتقابل فيها يزداد الأمر سوءا كما لو كان كل ما تُحسن عمله هو الشجار! اسمع سنتقابل بعد يومين . . غدا لدى . .

- أنا . . حسنا . سنتقابل بعد يومين عند محل "صن دايز" . . في الوقت المعتاد .

ـ سلام.

أسلوب بارد للافتراق. . بارد. .

غاضب. .

إحباط وتعب في صوته..

إبراهيم أحس أن قصتهما تجاهد للبقاء كما لو كان ذلك بالقوة. .

وإنها كانت صامدة بالصدفة أمام العوائق والصعوبات. .

لم تكن سوى مسألة وقت. . يوما. . اثنين. .

رغم قوة الحب. .

انطفأ شيء ما . .

حزن في الواقع. .

قليل من الحزن. .

إبراهيم في الواقع لم ير رامي هكذا أبدا. . ثاثرا إلى هذا الحد. . مولعا إلى هذا. . تعيسا إلى هذا . .

إلى هذا الحد. .

تابعه خلال عودته إلى البيت. . لاحظه. .

حاول أن يفهم فيما كان يفكر . .

نظرته الباهتة. . الغائبة. .

خطوته البطيئة . . المتجرجرة . .

بدا خاليا من كل همة . .

عاجزا عن التفاعل..

شعر بالألم لرؤيته على هذه الحال.

أثناء صعوده الأتوبيس ثم عودته إلى الجزارة، قرر أن يكلمه. .

يجب عليه ذلك . . يجب عليه ذلك . .

هذا المساء ذاته.

رامي!

_نعم!

- اسمع . . يجب أن . . على أن . . حسنا . . أرغب في الحديث معك إن لم يكن ذلك يزعجك .

_أهذا ما تظنه . . هيا تفضل .

ـ لا. . اسمع . . إنه موضوع دقيق . . ربما أمكننا الخروج لنتمشى.

_حسنا. . هيا بنا.

ما هذا البرد . . الليلة شديدة البرودة .

_أتريد أن أعود لإحضار سترتك يا إبراهيم؟

ـ لا . . شكرا يا رامي . على كل حال لن نغيب طويلا .

ـ حسنا . . قل لى كل شيء .

- حسنا. . يجب أن تفهم أنه يصعب على الحديث في ذلك . . الأدرى حقا من أين أبدأ.

- ابدأ بما تريد أن تقوله لي . بما يتعلق الأمر؟

۱۷۸

_إذًا.. اسمع يا رامى . . لقد لاحظنا كلنا فى هذه الأيام أن . . حسنا . . إنك متقلب باستمرار . . غريب الأطوار بعض الشىء . . أحيانا تبدو سعيدا ولطيفا . . وأحيانا أحيانا وغير عصبى . . وأحيانا أخرى حزينا مكتبا . . أو مغتاظا نزقا . . حسنا . . فتساءلنا عن سبب تلك التغيرات المزاجية المفاجئة .

_إبراهيم . . أستطيع أن أشرح لك . . كل ما في الأمر . .

ـ لا . . من فضلك . . أرجوك . . أريد أن أنهى كلامى . إذن . . أنا . . الآن، ما سأقوله لك لا يخص أحدا غيرى . . لا شأن للآخرين به . . اتفقنا!

... اتفقنا. . لكن. .

ـ أنا على علم بموضوع سارة.

_إن . . أنا . . م . . لكن . . س . . س . . سا . . سارة . . أنا . .

ـ نعم. . لا تتهته هكذا. أعرف أنك تحب فتاة يهودية ، وأنها تدعى سارة ، وأنكما تتقابلان خفية ، وأنك تريد أن تذهب إلى خان يونس معها، وأن تتركنا لأننا. . كيف قلت ذلك . . يوما ما يمكن ألا نكون هنا.

_سارة! لكن . . أنا . . لـ . . لا . . أحـ . . أعـ . . أعـ وف . . أية . . سارة . . أنا . . إبراهيم ، اسمع ، أنا . . ليس هناك أية . . اسمع . . أنا . . أنت . .

اسمعنى جيدا.. أنا فضلت أن أكتم أمرك وألا أقول شيئا للآخرين، وأن أحتفظ بذلك لنفسى . . لكن الآن يأتى دورك لتساعدنى . الآن وقد اكتشفت سرك . . لا يجب أن تنكره . . عليك فقط أن تشرح لى . .

- _آه بالله عليك! ماذا ستفعل الآن؟ هل ستقتلني؟ تريد أن تقتلني؟!
- _كف عن هذا. . اسمع . لا تتصرف كالجبناء . . اللعنة . . اعترف بسؤلياتك!
- حسنا يا إبراهيم . . أنت . . أنا . . اهدأ ، اتفقنا ا اتفقنا ! . . أنا . . سارة . . آه ، تبالك . . لكن كيف . . كيف اكتشفت الأمر؟ !
- منذاليس له أية أهمية الآن. أريدك أن تقول لى متى وكيف قابلت سارة لأول مرة؟! ومن على علم بقصتكما. رامى هذا الأمر مهم. قصتكما تضعكما للأسف فى خطر أنتما الاثنان. فاشرح لى كل شىء منذ البداية.
- حسنا. . حسنا. . أنا. . ذات يوم ذهبت لرؤية صديقي يوسف في قريته . .
 - ـ أى يوم كان هذا؟ حاول أن تكون دقيقا يا رامي . . هذا مهم!
- حسنا. . لكنك لن تقول شيئا للآخرين. . اتفقنا! لن تقول شيئا لمحمد! من فضلك يا إبراهيم. .
 - ـ بالطبع . . بالطبع . . أكمل . . أي يوم كان هذا؟
- أنا. . منذ شهر . . حسنا . . كان ذلك في نوف مبر . ذهبت إلى يوسف . . تعرف . . صديقي المحب للسلام . . وقال لي إنه تعرف على جماعة من الجامعيين الإسرائيليين المحبين للسلام . . هكذا . . وأراد أن يعرفني عليهم . . قلت له في بادئ الأمر إنني لا أظن أنها فكرة جيدة . . لكنه فيما بعد شرح لي أنه لم يكن هناك أي خطر في ذلك . وأنها ستكون تجربة رائعة . . باختصار . . انتهى به الأمر بإقناعي . . فذهبت معه وقابلت مجموعة من الشباب . . لكنهم

كانوا أشخاصا شجعان. . أؤكد لك. . أعنى . . لطالما قلت لى إن اليهود كلهم قساة على حد سواء . . لكن هؤلاء كانوا أناسا شرفاء . . وكانوا يعرفون ما يفعله بنا جنودهم كل يوم . . أتفهم . . لم يكونوا مثل الآخرين . . ومن بينهم كان هناك من دَعُونى للخروج معهم . حسنا . . لما خرجت معهم . عرفت سارة . كانت . كاثدى إن كنت ستفهمنى . . لكنها كانت حلوة . . وظريفة . . ولطيفة . كانت مختلفة عن الفكرة التى كانت فى ذهنى عما يمكن أن تكونه فتاة يهودية . كما ترى يا إبراهيم . . أعتقد أننا فى الواقع نحتفظ ببعض الأحكام المسبقة عنهم . . من الحطأ أن نقول إنهم كلهم يحبذون العنف . . كلهم متعجرفون . هناك الكثيرون منهم ممن لا ينطبق عليهم ذلك . . وبعضهم عمن يرفضون الحرب . على أية حال . . نعم . . هذا صحيح . . أريد أن أرحل إلى خان يونس مع سارة . أنا أحبها . . وهي تحبنى . لا أحسبك تقدر على منعى من

اسمع يا رامى . . لن أقول لك إلا شيئا واحدا . . لم أتكلم مع أحد عن سارة ، وليست عندى النية لذلك ، لكن لو كنت تريد فعلا الذهاب معها ، فأنا أقولها لك: أنت مخطئ . هناك الكثير من العوائق . . أنتما أبناء يسفك كل منهما دم الآخر . . أبواها لن يسمحا لها أبدا بالعيش مع فلسطيني . . أشعر بالحزن لأجلك يا رامى كما أشعر بحزن كبير لسارة . الحرب ظالمة . . وحقيقة أنه لا يمكن أن تكونا حبيبين . أيضا يجب أن تتصرف بشكل عملى وبعقلانية . . أتعتقد حقا أنه يمكنك التزوج من فتاة إسرائيلية هكذا ببساطة؟ كأنه لا شيء هناك؟ يمكنك أن تفعل ما تريد . . أن تتجاهل بساطة؟

تحذيراتى. . لكن لتعلم أنه في الوقت الذي تكون قد ارتكبت فيه هذا الخطأ فلن يمكنك اللجوء إلى بعد ذلك . . لن أستقبلك بصدر رحب .

ـ تبالك يا إبراهيم . . لا تتكلم هكذا! ألا تستطيع فهم أنه يمكن وجود شعور أكبر من كل شيء؟! هل هذا صعب الفهم . . صعب التقبل لهذه الدرجة؟! وهذا فقط لأنك تتحكم في فتاتك . . أنت لم تحب في حياتك! لا أعرف ما هي مشكلتك . . لكني لا أواجه أية مشكلة . . أحب سارة وسأتز وجها إن أردت . . فلا أحسبك تُملي على ما يجب وما لا يجب على عمله!

- أكرر لك فقط يا رامى: لا تَعُد أبدا للبحث عنى . . حتى عندما تكتشف أنك كنت على خطأ .

ـ و لكن فيما الخطأ في الحب . . هه!!

اسمع يا رامى . . الحب ليس مشكلة . . الحب شعور نبيل . . لست ضد سارة لكنى أحذرك : والداها لن يسمحا لها بحبك . إن كنت تريد الرحيل معها . . فلتفعل . لكن لتعلم أنك في يوم ما ستقول إننى كنت على حق . . وساعتها لن يمكنك الرجوع إلى الوراء . إن رحلت معها . . تتخلى عنا كلنا .

ـ لماذا تجبرني على الاختيار؟

- لقد اخترت بالفعل.

في الحقيقة كان اختيار رامي خطأ.

ذات يوم عاد رامي إلى البيت مساء، وانتحى بإبراهيم جانبا وقال

تبالك . . ربما كنت على حق . . كنت على حق . .

اليوم قالت لى سارة إنها غيرت رأيها بخصوصنا، وأنها ترى أن آراءنا متضاربة حول أشياء كثيرة . . وخاصة حول مسائل في غاية الأهمية . . ثم قالت إنها على أية حال لم تعد قادرة على الاستمرار على هذا النحو . . على اللقاءات الخفية . . خوفا من التعرض للهجوم . . أو حتى القتل من قومها أو قومي . .

من الأفـضل لى شـابا يهـوديا بلا مـشـاكل، يمكن لأبى وأمى أن يدعواه لتناول الغداء يوم السبت.

هذا ما قالته لي. .

ثم سَلَّمت على وذهبت.

إبراهيم نظر في عينيه نظرة قاسية وقال له. .

قلت لك ألا تعود..

وقال له رامي فقط. .

سامحني.

أصبح رامى حزينا جدا وباتسا جدا. . كان يفكر طوال النهار فى سارة . . والجميع فى البيت ، كانوا يجاهدون أن يتركوه وحده ، وألا يقحموه فى المناقشات التى تدور بينهم . كان إبراهيم يراقبه بزيج من الحزن والغيظ . . فى الواقع كان دائما ينبه أصدقاءه أنه من الأفضل ألايقتربوا من العدو حتى ولو لم يكن يحمل سلاحا . .

وجهات نظر مختلفة جدا. .

عدم تسامح ظاهر . .

اختلاف في التكوين. . وفي الأفكار

انتماء لفرق عرقية مختلفة. . وشديدة التعصب بالأخص. .

كان مستحيلا . . مستحيلا حب شخص مختلف بهذه الدرجة . .

ومع ذلك أحس إبراهيم بالمعاناة مع رامي . .

لأنه كان يفهم إحساس أن تفقد شيئا. . الألم الذي كان يكتسحه . .

كان يفهمه؛ لأنه كان يكفيه أن يتذكر أشجان..

ذاك الوجه الناعم الرقيق. .

تلك البراءة المستترة . .

تلك العينان الرائعتان . .

أحيانا كان يحلم بها. .

يحلم بحب لم يعشه أبدا. .

كان يظن أن الله يسمح أحيانا لعباده بفتح نافذة على ما كان يمكن أن تكون عليه حياتهم. .

وهذا ما حدث له . .

رأى أشبجان في أحلام. . تلك التي أحبها دون حتى أن يعرفها . .

استطاع أن يرى عينيها حتى ولو كان ذلك للحظة واحدة . .

ثم ماتت . .

دون أن تتمكن من النظر في عينيه . .

فكر إبراهيم أنه لابد أن الأمر مشابه قليلا بالنسبة لرامى . .

رأى وجه سارة . .

رغم أنه لم يستطع أن يحبها. .

في حالته تكلم معها. .

أحب صوتها. .

رغم أنه لم يستطع أن يحبها. .

قال إبراهيم لنفسه. .

لعل تلك القصص تُستأنف في السماء. .

لأنه في الواقع محزنا أن تبدأ تلك القصص، وأن تنتهي في أقل من ساعة. .

كان ذلك محزنا..

تماما مثلما كان رامي وإبراهيم حزينين في تلك الفترة. .

كان ذلك في١٩٩٧ .

كان عام قد مُر منذ استقرار إبراهيم وريهام وجهاد في بيت رامي ومحمد. .

لكنه بدا لهم دهرا. .

كما لو كانوا يعرفون بعضهم البعض منذ سنوات وسنوات. .

كانوا كالإخوة. .

كما لو كانوا يعرفون كل شيء عن بعضهم البعض. .

وفي الواقع أنهم صاروا بالفعل يعرفون بعضهم بكل عيوبهم. . بكل ميزاتهم. .

كانوا يفهمون بعضهم البعض دون حتى الحاجة إلى تبادل كلمة واحدة. .

وكان وضعهم كعائلة يمثل لهم ما يشبه النظام المناعي. .

في مواجهة الحرب..

كانت القوات الإسرائيلية تحتل قرى كثيرة. .

وكان انتشار مستوطنات اليهود الآتين من كل أنحاء العالم يتضخم بشكل كبير . .

كانت الحكومة الإسرائيلية تقول إنها تريد السلام، ولكن للجلاء عن الأراضي المحتلة يجب أن تتوقف أعمال العنف من جانب الفلسطينيين.. كان الجنود ودباباتهم ينتظرون في فتور أن يأتي فلسطيني يائس بفعل يائس. .

وهكذا ينتمهزون الفرصة ليقولوا إن الفلسطينيين لا يريدون السلام. .

وليبقوا في أماكنهم، وليأتوا بمستوطنين يهود آخرين. .

ربما يأتى زمن يمكن أن يحدث فيه شيء ما . .

ربما يأتى زمن يمكن أن يتوقف فيه تقدم الإسرائيليين . .

لكن الآن ما الذي يبقى لهذا الشعب الذي تغطيه الكو فيات؟!

ما الذي يبقى لهذا الشعب الذي تغطيه الكوفيات واليأس؟!

بضع رقع من الأراضي. .

وحتى تلك القطع القليلة . . احتلت . . اغتصبها اليهود . .

وحتى في تلك الرقع القليلة!

الأرض الطاهرة في المساجد. . الموضع الوحيد للسلام المطلق. .

داستها أحذية الجنود العسكرية . .

وحتى في تلك الرقع القليلة!

صراخ النسوة الشائرات اللاتي يتشاجرن مع الجنود. . مزق السكون. .

وحتى في تلك الرقع القليلة. .

لا سيما في تلك الرقع القليلة..

اشتعلت الحرب.

ذات يوم وإبراهيم في طريقه إلى الجزارة، رأى جماعة من الجنود يحتسون البيرة، ويضحكون وهم يسدون مدخل أحد المباني، ويمنعون برشاشاتهم عددا من الرجال من الدخول.

لما اقترب وسأل أحدهم عما يحدث. .

أجابه بأن المبنى تم اعتباره مبنى للمتمردين، ومن تَم يُمثل خطرا على المستوطنات البهودية بالمناطق المجاورة. .

وأن الجنود استلموا أمرا بالتفسيش و بمنع أى من كسان من الدخول . .

شرح الرجل لإبراهيم أنه لـم يكن سوى موظف، وأن المبنى كـان مجرد بنك. .

استلم الجنود أمرا بتدمير المبنى وبإطلاق الرصاص على من يحاول الاعتراض. . .

تعبير حانق وابتسامة مُرة ارتسما على وجه إبراهيم. .

بينما كان ينظر إلى هؤلاء المسلحين، الذين يبلغون بالكاد ما يزيد على العشرين عاما . . بدا بعضهم حتى في مثل عمر أحمد . .

فى لحظة ما وصلت فتاة طويلة ونحيفة. . شعرها طويل مجعد. .
شدت انتباه الجنود مُلُوحة بورقة . .

ها هي ماثتان وخمسون توقيعا لأشخاص من أنصار السلام يقرون بأنهم لم يمسكوا حـجـرا بأيديهم، ولا يريدون فـعل ذلك في المستقبل... هؤلاء الرجال يريدون فقط الدخول لممارسة عملهم. . وأنتم. . أنتم تستخدمون العنف. .

العجرفة . .

لماذا العنف؟! نحن نريد السلام. .

لانريد الحرب..

لماذا تدمرون هذا المبنى...

الذي يتيح فُرص عمل لرجال كثيرين؟!

لماذا تطلقون الرصاص على أبناء شعبي؟!

نحن نريد السلام . .

لكننا لم نَعُد نعرف كيف نحمى أنفسنا . . ؟!

كيف نحمى أنفسنا منكم . . ؟!

ها هى ماثتان وخمسون توقيعا، وأنا واثقة من القدرة على الحصول على ماثتين وخمسين أخرى وماثتين وخمسين إضافية. . لكن بعدها يأتى دوركم. .

لكن بعدها يجب أن تضعوا نهاية للعنف. .

لماذا تطلقون الرصاص على الناس؟!

الجندي ضحك وقال. .

أنا فقط أنفذ الأوامر .

كان اسم الفتاة ياسمين. .

كانت طبيبة . . أو على الأقل كانت كذلك من قبل . .

كانت في الواحدة والثلاثين من عمرها، وقبل أربعة أعوام قبضت عليها الحكومة الإسرائيلية؛ لأنها بعد واقعة تراشق بالرصاص في بلدتها. .

التي كانت تقع في منطقة محتلة بالكامل من الجيش اليهودي. .

هبت لإسعاف الجرحي والقتلي. .

وصل رجال شرطة إسرائيليين. . وقبضوا عليها، هي وطبيبان آخران. .

الأطباء كان قد سبق القبض عليهم من قبل، لإسعافات قدموها بالأردن وبلبنان إثر مذابح اللاجئين الفلسطينيين. .

قبض عليهم ثلاثتهم وظلوا في السجن مدة عام. .

عندما عادت ياسمين إلى بلدتها . . لم تجد بيتها . . دُكَّ بيتها . . ولم يبق فرد واحد من أسرتها . .

حاولت إعادة بناء وجودها. . والابتسام من جديد. .

ثم انخرطت في حملة ضد الحرب أطلقها جماعة من الطلاب الفلسطينيين. .

الآن تترافع عن قضية شعبها. . السلام. . اللاعنف. . الحوار. . .

إبراهيم أخذ يناقشها وهو في طريقه إلى الجزارة. .

مؤكدا أن قضيتها نبيلة، وأن أفكارها نبيلة. .

لكن ذلك لن يفيد في شيء ضد الإسرائيليين . .

قال لها . . انظري . . انظري . . ليس هناك سوى الجنود . .

تذكرى ما قاله لك ذاك الغلام. .

أنا أنفذ الأوامر . .

إنهم فاقدون الإحساس بآلام شعبنا، وحتى بآلامهم. .

حتى حين يرجو العالم بأجمعه. . حين يتوسل . . بعض الاتفاقيات . .

فهم يتركون مائدة المفاوضات بمنتهى الصلافة . .

ويقولون لا.

٧.

ويتلك الـ «لا» البسيطة يقتلون مئات الأطفال . .

وبتلك الـ «لا» البسيطة يحكمون على شعبنا بعذاب أبدى . .

ياسمين . . يمكنك أن ترغبي في السلام كيفما تشائين . .

لكنهم على الجانب الآخر لو أصموا آذانهم عن طلبك للسلام. .

فإن هذا لن يجدي شيئا. .

أتفهمين! أما نحن جميعا. . لانولد بالرغبة في الثأر والعنف. .

لكنها تصير جزءا متأصلاً من كياننا. .

خاصة عندما تنفجر قدرتنا على الاحتمال . .

ياسمين . . أنت فتاة جميلة وذكية . .

لكن هذا لا يكفى..

ضدهم. . هذا لا يكفى.

بعد أن قام بالسلام على ياسمين، أسرع إبراهيم للذهاب إلى الجزارة . .

كان متأخرا عن موعده بالفعل. .

لكنه أثناء سيره رأى في المخيم الذي وجد فيه أحمد واللاجئين الآخرين . .

عددا كبيرا من الرجال والأطفال. .

اقترب وظل يراقبهم . .

كان هناك ما يشبه ميدان المعركة . . مُشيّد بألواح خشبية . . إطارات مطاطية . . حبال . . أدوات بالية . .

وأطفال في الزي العسكري. . برشاشات ومسدسات مزيفة. . يتلون آيات القرآن الكريم التي تمجد الجهاد. .

كان الأطفال يجرون. . يقفزون . . يزحفون . . وهم يصوبون أسلحتهم نحو أعداء وهميين . .

وفي نهاية مسيرتهم كانوا يتوقفون أمام الحشد الذي كان يحمسهم . . يباركهم . . كانوا يتوقفون . . يستعرضون صدورهم الصغيرة . . يضمون أرجلهم النحيلة . . ويرفعون عيونهم بفخر ويصيحون . . والغريب أن أصواتهم كانت تخيف قليلا . .

تكاد تكون متوعدة . .

متوعدة..

كانوا يصيحون. .

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ .

﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ .

﴿ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ .

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمْن يُقْتَلُ فِي سَسِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنِ لاَّ تَشْعُرُونَ ﴾ .

كانوا يصيحون بكل ما يملكون من قوة. . رافعين بنادقهم نحو السماء. .

فخورين..

نظراتهم شرسة . .

يضحكون أحيانا. .

آباؤهم كانوا يراقبونهم بزهو . . والحشد كان يحمسهم . .

في تلك اللحظة كان إبراهيم لديه رغبة في البكاء. .

رأى هؤلاء الأطفال وقد سُدت في وجوههم الأبواب . .

تلك الأفكار التي كانوا يحشون بها رءوسهم . .

في تلك السن النضرة. .

لم يتجاوزوا السابعة . . الثامنة . . التاسعة من العمر . .

كرسواكل حياتهم لشعبهم . .

كرسواكل حياتهم لكراهية عدوهم . .

لقتاله..

وللصلاة بيد موضوعة على السلاح . .

وقد حُكم عليهم وهم لا يزالون في هذه السن. .

حُكم عليهم بحياة العنف. .

وموتهم كان قد كُتب بالفعل . . نهايتهم كانت قد كُتبت بالفعل . . كانوا سجناء قيد لم يكن ليتحطم أبدا . .

كانوا سجناء العنف. .

كانوا فاقدين للحرية . .

كل أشكال الحرية.

مشاعر متضادة . .

مشاعر متضادة . .

لأن قلبه لم يطاوعه على إدانة آباء هؤلاء الأطفال . .

إبراهيم لم يكن قادرا على إدانة هؤ لاء الناس. .

لأنه في زمانهم . . كَبُر آباء هؤلاء الأطفال ، والألم يمزقهم . .

والكراهية تنهشهم . .

كيف يمكن الحكم عليهم؟!

كيف يمكن إدانتهم؟!

طفل يُقتل أبواه أمام عينيه ستظل نفسه مدمرة إلى الأبد . .

سيظل معذبا بالتعطش للثأر . .

سيظل معذبا بالكراهية . .

الملحة . .

الثابتة . .

العنيفة . .

سيظل معذبا؛ ولن يستطيع سوى اعتناق حياة الكراهية . .

وسيربي أولاده بنفس الطريقة. .

بذرة الشر..

الآن تسللت بينهم . .

ولم يعد هناك شيء يمكن عمله لمقاومتها. .

أشاح إبراهيم بوجهه عن هذا المشهد. .

كان يؤلمه أن يفكر . .

أنه أيضا مثل هؤلاء الأطفال..

و كذلك أصحابه. .

كانوا مثل هؤلاء الأطفال..

دمرتهم الكراهية . .

دمرهم الشر.

سمع إبراهيم صوتا بداخله . .

يصرخ فيه أن يفعل شيئا. . أن يمنع الكراهية من العصف به . .

لكن حتى الهواء الذي كان يتنفسه صار مشبعا بها . .

الكراهية . .

حتى الأرض التي كان يطأها صارت ملوثة بها. .

صارت أرض الكراهية . .

- تبالك يا أحمد . . أنت تمسك باستمرار كتابا في يدك ا أتساءل كيف لا تَمَل . . ؟!
- أمل! أتمزح؟! القراءة تشبه ركوب قطار تجهل وجهته. . ولما يحين موعد نزولك منه. . تشعر أنك حزين. .
- في رأيي . . أنت حقا لست طبيعيا . بالمناسبة . . ما نوعية هذا الكتاب؟
- هاملت لشكسبير . . لقد قرأته ألف مرة ، لكن في كل مرة تجتذبني الصفحات ، ولا أقوى على الفكاك منها قبل الانتهاء من الكتاب .

البطل لديه جاذبية ومكر عجيبان. . أتعرف. . أعتقد أننا نبخس قدر الناس المتخلفين عقليا. . فهاملت بفضل تظاهره بالجنون استطاع الثأر لمقتل أبيه . أما عن حبه المعذب لأوفيليا . . فنحن نتساءل حتى المحظة الأخيرة إن كانت الفتاة الشابة الجميلة قد فازت حقا بقلب ولد مزعزع مثله . .

- أشعر أن الكتب ترهقك بعض الشيء يا أحمد. ما رأيك في أن نلعب دورة «شطرنج»! نشكل فريقين . . ثم . .

- إبراهيم. . لتلعبا أنتما معا. . يجب أن أنتهى من قراءة كتابى . سامحني . . هه .

ـ أنت مجنون تماما.

فى صباح يوم ١٢ مارس ١٩٩٨ ، خرج إبراهيم للذهاب إلى العمل..

كان معه محمد ورامي . . كان يجب أن يذهبا إلى المستشفى . .

ساروا وهم يثرثرون. .

فجأة توقف إبراهيم . .

رأى في طرف الشارع الصغير المؤدى إلى بيتهم. .

شبح رجل..

نبه صديقيه . . انظرا . . أحدهم قادم . .

يبدو متجها نحونا. .

بدا أنه رجل شاب. .

قفز قلب إبراهيم وهو يراقب ساكنا ذلك الرجل الذي يقترب. .

بدا رامي ومحمد هما أيضا متجمدان بفعل قوة غريبة تشد أرجلهما إلى الأرض. .

الآن. . كان الرجل على بعد بضعة أمتار منهم . .

كانت له لحية . . شعر ناعم كستنائي فاتح . .

عينان كستنائيتان . . واسعتان . . واسعتان جدا . .

كان ينظر إليهم . .

انفعال. . دموع. .

ذهول..

قوة مشاعر جياشة . .

مشاعر جياشة. .

واحدا بعد الآخر . .

أحيانا نشعر أن ما يَجْرى قــد وقع من قبل مرات عديدة، وبشكل ما يتكرر لمرات لا نهاية لها.

لكن الواقع أنه قد وقع في رأسنا. . في أحلامنا. .

في رغباتنا . .

كم حلم إبراهيم بتلك اللحظة . . !

كم اشتاق إليها . . !

حدثت. .

حدثت..

لكن ها هم جميعا لا يقوون على الحراك. .

صدر عن محمد صوت حشرجة غريبة ومختلفة. .

رامي كان يفتح عينيه مندهشا. .

إبراهيم أحس بموجة عارمة تختلج قلبه وذهنه. .

هل كانت سعادة؟!

هل كانت مفاجأة؟!

الله أكبر . .

رأى رجلا يحدق فيه. .

رجلا طويلا جدا. . الوجه نحيف وشاحب، واللحية رفيعة، والأنف مقوس .

والعينان واسعتان غير متناسقتين . .

مع باقى ملامح الوجه . .

كان له هيئة رجل بشوش ودود. .

استمر يحدق في إبراهيم، ولكن دون ريبة أو توجس. .

بل بشيء من الرقة . .

ورأى رجلا يحدق فيه. .

ورأى رجلا يحدق فيه. .

تذكر إبراهيم هذا الموقف الذي حدث قبل خمسة أعوام. .

لكنه كان واضحا تماما في ذاكرته. .

واضحا تماما..

تذكر إبراهيم هذا الموقف. . هذا الموقف وشعر بالدموع تهدد بالانهمار. .

كان ولدا ناحل الوجه. . حاد الملامح. .

ورأى نفسه وهو لا يزال بلا لحية. .

رأى شابين. .

يتقدمان في الحياة بتردد شديد. .

رأى بداية كل شيء . .

رأى صداقة سامية . .

رأى وعدا قطع ثلاثة أعوام..

«وسنناضل. . سنناضل حتى الموت».

تواعدا على ألا يفترقا أبدا. .

ألا يفترقا أبدا. .

تواعدا على النضال حتى الموت. .

وألا يتخلى أحدهما عن الآخر . .

نضال نفس الموعد. .

لكنه الآن عاد.

لحظة أن استطاع إبراهيم الحراك، أطلق صرخة وارتمى على صديقه..

وقع الاثنان على الأرض ضاحكين باكيين..

ثم قام وتعانقا إلى حد الألم. .

ثم وقعا من جديد على الأرض . . قاما . . ضحكا . . شهقا . . قَبَّلا بعضهما . .

تأثُّر . . إبراهيم كان يرتعش . .

نضال لم يعد يرى شيئا. .

تُغيم الدموع على عيونه . .

لما واتتهما القوة لأن يتوقفا عن العناق. .

ولأن ينظر كل واحد منهما إلى الآخر..

كانا وكأن كل واحد منهما يشتم الآخر كجرو وأمه حين يتلاقيان.

نضال أصبح له لحية . . وصار أكثر نحولا . .

تغير وجهه. .

كما لوكان أكثر يقظة . .

أكثر نضجا. .

إبراهيم كان مشدود الوجه. .

مما أثَّر على نضال..

هزه..

أوجعه..

أن يرى هذا البريق. .

ذاك البريق في نظرة إبراهيم..

الذي لازمه لزمن طويل مضى . .

كان قد اختفى . . أو ربما قد خبا . .

كان وجهه يوحى بنوع من الاستسلام.

من الألم المخنوق. .

من الحزن العاجز . .

كان إبراهيم خلال تلك السنين قد فقد شيئا ما. .

وفيما كانوا ينظرون إلى بعضهم البعض. .

صرخ محمد كما لو كان يريد لفت الانتباه إليه. .

ارتمى على نضال . .

وعانقه . . وقبله . .

ثم کان دور رامی . .

ريهام التي سمعت أصواتا منتشية وصرحات التأثر . . .

خرجت من البيت . .

لكنها تسمرت عند المدخل . .

شعرت بدوخة . .

ترنحت . . ثم استعادت اتزانها . . واستندت

على قائمة الباب. .

العينان في العينين. .

بينما كان محمد ورامي وإبراهيم . .

يراقبون متجمدين. .

لحظة ساحرة..

اللحظة الساحرة...

نظرة مشبعة بالكلمات. . بالأحاسيس. .

حَلْق جاف . . صدغان ينبضان بجنون . .

قلب يدق متسارعا . .

وجه ريهام الجميل . .

تجرى عليه دمعة . . اثنتان . .

يدها على فمها . .

صرخة مخنوقة..

نضال يكبح دموعه. . لا يجرؤ على الحراك. .

قلوبهم تبكي. .

قلبه يبكى . .

يشعر بألم في قلبه . .

ينظر إليها..

كم هي رائعة الجمال. .

رائعة الجمال . . !

لم يكن يتذكرها بهذا الجمال. .

شعرها الطويل. . ناعما كالحرير. .

عينيها الرماديتين . . الحادتين . . العميقتين . .

عينا نضال تغرق فيهما. .

تغرق فيهما . .

ونسيان حلو . .

•

نسيان حلو . . ومؤلم . .

يكتشف كل واحد الآخر . . ينظر كل واحد إلى الآخر . . يظلا هكذا برهة . .

تبدو دهرا. .

كما لو أن الوقت توقف. .

كما لو أنه توقف. .

ثم صرخة . . يبدو أن القلب لا يتحمل . .

انفعال حاد كهذا. .

سعادة كاملة كتلك. .

بينما الألم والغبطة يذوبان. .

بينما يتعانقان. . يتقاربان. . يُكَثِّفان. .

في لفتة واحدة. .

أوجاع وآلام وعذابات. .

وأحزان وحنين . .

عامين..

بينما الحب يسود تماما على كل المشاعر الأخرى. .

الإرهاق في تلك اللحظة شديد وكأنه يدمر هشاشة . .

امرأة عاشقة . .

امرأة حلمت . بكت . . رغبت . .

رجلها..

امرأة اضطرت إلى طرح المشاعر جانبا و . .

نسيا أن الحب إحساس..

بمثل تلك القوة . .

يسحب الأنفاس. .

يوقف ضربات القلب. .

ينتزع الحيوية . .

امرأة تبدو وكأنها نسيت.

إمكانية وجود شيء بمثل هذه الشدة . .

بداخلها..

دموعا. . دموعا. . ألما. .

سعادة . . تأثرا . .

ثم خرج جهاد وأحمد. . رأيا نضالا . .

انطلق جهاد . .

نحو نضال..

ضمه يقوة. . ضحك . . ضمه . . ضحك . .

انتحى أحمد جانبا..

لم يعرف من هو هذا الرجل الطويل النحيف. .

الوجه النحيل المدبب. . العينين الواسعتين. .

لكنه كان حتما شخصا مهما للغاية . .

بكوا جميعا. .

بدوا جميعا أسركي لإحساس جديد لم يعهدوه من قبل.

بدوا متأثرين بشعور قوي جدا. .

أحمد لم يعرف من كان هذا الرجل. .

لكنه فهم أنه كان حتما شخصا.

مُهما للغاية .

لزم الأمر الجميع عدة أشهر للتعود من جديد على وجود نضال.

في الصباح كانوا يستيقظون ويبحثون عنه بنظراتهم كما لو كانوا يريدون التأكد أن كل ما حدث كان حقيقيا فعلا. .

وأنه لم يكن حلما. .

وأن صديقهم نضال صار معهم من جديد. .

ريهام لم تكن تتركه لحظة . . كما أنه لم يكن يتكلم مع أحد سواها . .

جهاد وأحمد كانا يقضيان اليوم بطوله يتندران عليهما . .

محمد ورامي كانا مرحين وكأن عدوى سخرية ومزاح أحمد طالتهما. .

إبراهيم كان يشعر برغبة شديدة في حمايتهما. .

وكان سعيدا لرؤيتهما متحدين هكذا وسعيدين هكذا. .

كما يكون الأب حين يرى أبناءه مرتاحين وفي أحسن حال . .

انتقلت الحرب الآن إلى الخطة الثانية . . كانوا جميعهم يجاهدون ألا يروا . . أو بمعـنى أصـح . . أن يتظاهروا بعـــدم رؤية الجنود ودبابات الاحتلال والأسلحة. . كل ما كان يهمهم الآن هو أن يكونوا معا . .

إبراهيم ومحمد صنعا سريرين جديدين . .

فقد صارت عائلتهما الآن أكثر عددا..

في ٢١ أبريل ١٩٩٩، ريهام ونضال تزوجا. .

كان يوما سعيدا جدا. . واستمر الاحتفال حتى صباح اليوم التالي . .

ترك محمد حجرته ـ أكبر واحدة في البيت ـ للزوجين . .

نظفاها حتى صارت تلمع وزيناها بالورود. .

اشتريا سريرا كبيرا ومرآة للزينة . .

نَقل محمد سريره إلى حجرة رامي وإبراهيم . .

بينما كان أحمد وجهاد ينامان في حجرة صغيرة جدرانها تغطيها لوحات بها آيات من القرآن الكريم .

وجد نضال عمملا عند وكبيل للسيبارات. . وأحمد عند ميكانيكي . . وجهاد في مطعم . .

استمرت الحياة. .

وآخر عضو فى أسرتهم الأصغر سنا انضم إليهم فى سبتمبر . . وجدوه فى الشارع . . كان يتسول ضاحكا . . كان يتسول ضاحكا . . كان كله متسخا . . كان لديه سنتان مكسورتان . . شعره أشعث . . يبدو كالمهرج . . كان اسمه وليد . . كان فى الثالثة عشرة من عمره . . كان صغيرا جدا . . كان يتسول منذ سن السابعة . . قضى نصف حياته فى الشوارع . . لكنه أخيرا وجد أسرة . . الأسرة التى حُرم منها طوال حياته . . كان اسمه وليد . . كان فى الثالثة عشرة .

ثلاثــة

إنها ليلة باردة . . بدر مكتمل الاستدارة . . نجوم لا تحصى . . تبدو وكأنها نمش في الوجه . .

إبراهيم يسحب نفسا من سيجارته . .

يفكر . . يتذكر . . إنها ليلة عجيبة . . يتغلب عليه فيها الحنين . . يعرفه الحنين إلى كل شيء . .

يتذكر أشياء كثيرة . . بدءا بأمه . . لا يتذكر وجهها . . ولا حتى معه صورة لها . . أبوه كان الصلة الوحيدة التى تربطه بالماضى وبأمه بالتالي . . . مرة و احدة فقط رأى لها صهرة . . كانت صورة الزفاف . .

كانت رائعة الجمال..

رائعة الجمال . .

إبراهيم يتذكر وجه أبيه. .

ذاك الوجه يتذكره جيدا . .

يراه كل الليالي . .

ثم ذلك اليوم المشئوم. . الدم. . المصحف . . كل شيء شديد الوضوح في ذاكرته . . لا يعرف إن كان هذا خيرا أم شرا. .

اللقاء مع نضال . . ثم جهاد وريهام . .

ومحمد ورامي. .

أحمد..

عودة نضال . .

وأخيرا وليد. .

يقطع هدوء الليلة دوي. .

دوى مدافع كلاشينكوف. .

في القرى المجاورة يزاول الجنود الإسرائيليون هجماتهم المعتادة. .

الجيش يتدخل بالمدفعية الثقيلة . .

يبدو ذلك غير معقول. .

غير معقول . .

إنه على بعد بضع كيلومترات من البيت . .

يشتعل العنف والحقد هكذا. .

تقوم الحرب. .

على مسافة صغيرة من حيث تجلس وتتناول الشاي . .

مع أصدقائك . .

يخرج أحمد إلى الشرفة . . يبتسم لرؤية نظرة إبراهيم الشاردة . . ضائعة في الفراغ . .

414

يقول له. .

لطالما تساءلت فيما تفكر ـ حقا ـ حين تكون شاردا هكذا. .

ينتشل إبراهيم نفسه من أفكاره. .

يبتسم بالكاد ويجيب. .

في أشياء كثيرة. .

أفكر في أشياء كثيرة..

أفكر في أن انتفاضتنا مضى عليها عام الآن . .

لكن الشيء الوحيد الذي حصلنا عليه هو عدد مفزع من القتلي. .

أفكر في يوم ٣٠ سبتمبر من العام الماضي. .

عندما قُتل ذاك الصبي . .

محمد الدرة..

ولما أجرى الجندى الذى قتل الصغير حديثا صحفيا . . قال إنه أبقى على الأب حيا حتى يعذبه . . هذا ما قاله . . قتلت الابن وتركت الأب حيا حتى أعذبه . .

هكذا. . يبدو أن ما قاله الجندى لايزعج أحدا سواى . . باقى العالم لا يبالى . . رأى الناس هو أن الأمر لا يتعدى ضحية صغيرة من ضحايا كثيرة . .

هكذا. . وأقول لنفسى . . هل أحسب للرأى العام وزنا بعد ذلك؟ حسنا . . أعتقد أن الإجابه بلا . . يقولها إبراهيم وعلى وجهه ابتسامة مُرةً . .

أتساءل عن رأى سائر العالم . .

ما الذى يبثونه عبر شاشة التليفزيون لشباب الغرب؟ ما هو رأيهم فيما يحدث؟ أيعنيهم أن الناس يموتون هنا؟ هذا ما أفكر فيه. . من بين أشياء أخرى كثيرة . . ثم يسكت . . يسحب نفسا آخر ، . . ملتفتا إلى أحمد . . يقول له: متأملا في ظلم الليل . . يحاول أن ينتزع ابتسامة . .

وأنت فيم تفكر؟

فينظر إليه أحمد . . يبتسم هو الآخر وتلمع عيناه . .

كنت أفكر أنه يمكنني البقاء منا أقرأ حتى نهاية العالم. .

لكن في الواقع الشيء الوحيد الذي يهمني هو أنتم. .

هو أنت. .

كنت أفكر أنك منحتنى أسرة . . أنك أنت أسرتى . . وأنه . . ربما لن يسعنى أن أقولها لك بالقدر الكافى . . إننى حقا أحبك . . وأنه فى النهاية . . ربما فى يوم ما لن نكون معا ولن أستطيع أن أقول لك . . شكرا . . شكرا . . لكل ما فعلته من أجلى . .

لو قُدِّر لهـذه الحرب أن تنتهى يوما. . ولو قُـدر لنا اسـتـرداد أرضنا . . لو يوما استطعنا تخطى كل هذا العنف . . حسنا . . سأحب أن تكون ساعتها بجانبى . . وأن أقول لك . .

أترى. . لقد نجحنا. .

لقد نححنا . .

يسكت أحمد. .

يتفحص يديه . . خَجلا لا شك . .

حين تكون رجلا يكون ذلك صعبا. .

صعبا. .

أن تترك نفسك على سجيتها وأن تعترف أن قلبك يُدفئه إحساس رقيق هكذا. . يتخطى كل ألم. . فإنه الحب. .

الحب. .

ينظر كل منهما إلى الآخر . .

يتذكر إبراهيم أول مَرة وعَده فيها بشيء. . أول مَرة كذب فيها عليه . .

كان ذلك بخصوص أشجان . . قال له . .

إنها ستنجو يا أحمد. . ستنجو . .

والآن لا يريد أن يَعد أحمد بأنه حين يأتي هذا اليوم سيكونان هما الاثنان هنا وأنهما سيكونان معا . .

لأنه يعلم أن ذلك قد لا يكون صحيحا. .

فيكتفى بالابتسام له ثانية . .

ويخفض عينيه. .

إبراهيم يشعر بأنه سار شيخا مسنا. .

شيء غريب. . لأنه في الحقيقة لا يبلغ إلا الواحدة والثلاثين . .

اللعنة . ي شعر بالغضب حين يفكر في ذلك . ليس إلا في الواحدة والشلاثين ومن الأجدر به أن يستمتع بالأشياء الجميلة في الحياة وأن يبتسم أكثر . .

بدلا من ذلك . . يعيش مع سبعة أصدقاء ويخاف عليهم كل يوم . . كل يوم . . وكل مساء يخرج إلى الشرفة وينظر للسماء . . للقمر . . إلى القبة الزرقاء . . يندهش أن هذا اليوم أيضا قد مر دون أن يحدث مكروه لأى من الأشخاص الذين يحبهم . .

إبراهيم يفكر في الفتاة التي قابلها منذ بضع سنوات. . ياسمين . . التي كانت تتكلم عن السلام بكل اقتناع . .

يتمنى أن الناس . . كل الناس في أنحاء العالم . . يفكرون مثل ياسمين . .

سيتم إنقاذ الكثير من الضحايا..

دوى يخترق سكون الليل. .

ويُذكِّر إبراهيم بأن الوقت متأخر جدا على مثل هذه الأفكار.

- رامى . . كفى . . تبالك . . ألا يجدر بك المساعدة في أعمال البيت بدلا من الشجار طوال الوقت مع جهاد؟

- اسمعى يا ريهام . . إذا استمر أخوك في استفزازي . . فكيف تظنين أن يكون رد فعلى ؟

ـ اذهب إذن لنداء إبراهيم وأحمد. . لابد أنهما بالشرفة! ثم انتبه إلى الماء . لو رأيته يغلي . .

ـ أعرف كيف يُصنع الشاى يا ريهام!

ـ حسنا. . حسنا. . سأخرج لإلقاء القمامة .

- إبراهيم . . أحمد! ريهام تقول لكما أن تدخلا!

ـ حسنا. . سنأتي . . دقيقة واحدة فقط!

ـ جهاد! توقف عن التصرف بحماقة! واحضر لي الشاي!

ـ لم لا تأت أنت لأخذه يا محمد؟ ماذا هنالك . . هل استعبدتني؟

ـ جهاد . . أنا لستُ في حالة جيدة ! إن أثرت غضبي .

ـماذا. . إن أثرت غضبك؟ ماذا ستفعل . . هه؟ ستضربني؟ ستركلني؟ أنا سأنادى لك على أختى وساأنو لك ضرب . آآاه! ابتعد عنى! أففف! كم أنك ثقيل! قُم من هنا . كلا! إلا اللخدغة . كلا! ريهاااام! آآآه . . إمش يا محمد . . آآه . . آه . . لا تفعل هذا! لا تدخدغنى! قُم من هنا!

_هه. . أنتما الاثنان . . ماذا تفعلان؟

ـ هو الذي بدأ يا ريهام! لقد انقض على بكتلة شحمه الضخمة!

ـ شحم! أنا! كل ما في عضلات يا غبى!

ـ كفي . . ما هذا العراك؟ وأنت يا محمد . . ماذا تفعل فوق جهاد؟

ـ أوووه . . لا شيء يا إبراهيم . . كنا . . نتحدث .

- ـ لا تؤاخذني . . لكن هل تحتاج لأن تكون فوقه حتى تتحدث؟
 - أنت . . أحمد . . لا تتدخل فيما لا يعنيك!
- _حبيبتي . . أين الشاي؟ هه . . لكن ما الذي تفعلاه أنتما الاثنان؟
- هه. . لم يبق سوى نضال! حسنا . . سنصفى حساباتنا مرة أخرى نحن الاثنان . . ريهام . . هل يمكن أن تصبى لنا الشاى؟
 - وحسنان حسنان سأحضره والمحضره حالان
 - يا أولاد . . يا له من اجتماع غير عادى! كلنا جالسين!
 - ـ هه. . أيها الأبله . . كنت هنا قَبْلُك!
 - ـ اسمع يا جهاد إن لم تتحرك سأقول لمحمد أن يصفى حسابه . .
- ـ لا لا . . محمد كلا! هيا تعال يا رامي . . اجلس على الأريكة . . أنا سأجلس هنا .
- ما هو الشاى! امسك يا حبيبى. إبراهيم. . الكوب ذو ملعقتى السكر هو لأحمد. وليد. . هذا كوبك. جهاد. . توقف عن الهراء أنت ورامى . محمد . . هذا لك . . وناول الآخر لرامى . وهذا لى . قاما .
 - ـ حسنا . . بما أن الكل معه كوبه الآن . . أأستطيع أن أبدأ الاجتماع؟
 - اجتماع! أي اجتماع؟
 - صه يا ريهام! إبراهيم دعانا إلى اجتماع طارئ . .
- بالضبط . . اجتماع طارئ . . حسنا يا أولاد . . سأدخل في الموضوع

- مباشرة: هذا الشهر هناك مشكلة ما في الحسابات. . دفعنا الإيجار . . ومصاريف التسوق . . والماء أيضا . . لكن إن لم ندفع الكهرباء سيقطعونها عنا . للأسف وضعت راتبي كله في دفع الإيجار لذا فأنا مضطر لأخذ كل ما بقي معكم من نقود وإلا سينقطع عنا التيار قريبا .
- حسنا. . وكأن الأمر سيختلف إن دفعنا! الماء دفعناه . . ومع ذلك لا يصل . . ولزم الأمر أن نذهب لإحضاره من البئر! في الحالة التي وصلنا إليها الآن . . سواء دفعنا فواتيرنا أم لا . . يوما ما سينقطع النور!
 - ـ أنا أيضا أوافق جهاد . . لعل الأمر لا يستحق الدفع يا إبراهيم . .
- ـ ما الذي تقوله يا محمد؟ نحن نحتاج الكهرباء. . لا يَسعُنا تركها تنقطع عنا!
- ـ نعم يا أولاد. . إبراهيم على حق . . نحن نحتاج إلى الكهـرباء . . فهيا أخُرجوا المال .
- ـ حسنا. . حسنا. . سأعطيكم ما بقى من راتبي . على أية حال. . ما يعطوني إياه في المحل ليس بالكثير .
 - ـ غدا سيدفعون لي راتبي في الورشة. سأعطيكم نصفه.
- حسنا أرى أننا متفقون. شكرا يا نضال. . وشكرا يا أحمد . الآن . . ننتقل إلى البند الثانى الخاص بوليد . . يجب أن يذهب إلى المدرسة . . فليس من المعقول ألا يحصل على الأقل على شهادة التعليم الأساسي .

- ـهه. . لحظة . . أنا لا أريد أن أذهب إلى المدرســة! أنا هكذا في أحسن حال!
- وليد لا تتصرف مثل الأطفال! يجب أن تحصل على حد أدنى من التعليم . . يجب أن تتعلم الحساب والجغرافيا والتاريخ . . وكل المواد الأخرى .
- لقد درسنا كلنا حتى المرحلة المتوسطة على الأقل . . التعليم شى ع أساسى لكل الناس . لذا ستذهب إلى المدرسة . . على أية حال لقد أُتُّخذ القرار . . كل ما يبقى فى الأمر هو تحديد المكان .
- لكنى لا أرغب فى الذهاب إلى المدرسة! لقد قضيت كل حياتى فى الشارع. . ماذا سأفعل أنا فى المدرسة؟

ـ ستتعلم! وكفي لغوا!

- اسمع يا إبراهيم . . عندى فكرة . . لا أظن أنه يمكنك إرساله إلى المدرسة دون أن تكون لديه على الأقل فكرة مبدئية . . فبما أننى المدرسة دون أن تكون لديه على الأقل فكرة مبدئية . . فبما أننى الوحيدة هنا التى لا تعمل . . وأننى لا أفعل شيئا سوى ترقيع الجوارب وإعداد الطعام وترتيب الحجرات . . أستطيع أن أعطيه دروسا وحتى لمدة ست أو سبع ساعات فى اليوم . سنشترى بعض الكتب . . وسأعلمه بعض الأشياء . . وفى العام القادم نسجله فى المدرسة الإعدادية فوليد ـ فى الواع ـ لا يعرف لا القراءة و لا الكتابة .
- ريهام على حق يا إبراهيم. لا يمكنك إرسال أمّى إلى المدرسة. ثم إنها بهذا الشكل سيكون لديها شىء لتفعله بدلا من ترقيع الجوارب على حد قولها. على كل حال. . أنا لم أعطك أبدا أية جوارب لخياطتها.

- بالطبع يا عزيزى . . فأنت تتركها مثقوبة في الدولاب اوأنا التي أخرجها وأصلحها لك! أيا كان الأمر . . لا تفكر في هذا الأمر يا إبراهيم .
- -حسنا. . حسنا. . أنتما بلاشك على حق. . فليكن . . سنمنحه فرصة عام.
- لا لا ثم لا! أنا لن أذهب إلى المدرسة ولو بعد ماثة عام! ثم انسوا تماما أن تُدرَّس لي هذه المجنونة ريهام.
 - ماذا قُلت عنى ؟ أيها الملعون!
- اهدئى يا ريهام. ليس سوى غلام صغير. . إنه يمزح. لكن قُل لى إذن. . من أين لك تلك الكراهة للمدرسة؟
- لا أريد إضاعة وقتى في الاستماع إلى مُدرس عبيط! أريد قتل الجنود. . قلف الحجارة عليهم . . والإيقاع بأكبر عدد منهم . . أريد قتلهم كلهم و . .
- وليد! ماذا تقول؟ ما هذه الأفكار؟ أنا الذي سأقتلك أيها الأبله! تعال هنا. . وشرفي لألقنك درسا! أيها الملعون!
- اهدأ يا إبراهيم! كفى . . ماذا دهاك؟ ما هذا العنف؟ لم أرك قط فى مثل هذا الغضب!
- لكن. . ألم تسمعه يا نضال؟ إنه يتكلم مثل سفاح! هذا السيد

المحترم لا يهمه التعليم في شيء . . لا . . بل كل ما يهمه هو قتل الجنود! أقهمت هذا الصبي اكني سأعرف كيف أمحو هذه الأفكار من رأسه اسمعني جيدا يا وليد . . في هذا البيت ، نحن نريد السلام . . نريد أيضا أن ننتصر . . ونحن نعرف أنه لكى ننتصر يجب أحيانا اللجوء للعنف . . وأنه يجب في أحيان كثيرة الرد على العدو بالمثل . لكن هذا ليس دورك أنت . . عليك أن تدرس فقط . . أن تكبر . عليك أن تدعو الله . . ليس من شأنك رمى الحجارة وقتل الجنود! اطرح هذه الأفكار من رأسك!

ـ لكن هذا ما كان أبى ليريده لو كان حيا! كل الأولاد فى الشارع يرمون الحجارة!

- ربما أن هؤلاء الأولاد ليس لهم أهل . . أما أنت فعلى العكس . . نحن أهلك . . ولا نريلك أن تذهب للقيام بمثل هذه الأشياء . لهذا فمن الغد ستتلقى دروسك من ريهام . انتهى النقاش .

إبراهيم لا يزال يشعر بالغضب يضطرم بداخله . .

ينهض . . يخرج من جديد إلى الشرفة . .

بينما يبقى أصحابه في الصالون مذهولون لا يتحركون . .

كان رد فعل إبراهيم عنيفا. .

لولم يُوقف نضال لكان قد صَفع وليد على الأغلب.. وقد أذهلهم ذلك لأن إبراهيم كان دائما طيبا جدا ولطيفا مع الكل.. وخاصة مع الصبي..

إبراهيم عصبي ومُستَفَز. .

لا يتحمل رؤية غلام في الخامسة عشرة من عمره. .

وأكثر من ذلك . . غلام هو شخصيا مسئول عنه. .

يريد تكريس حياته لقتل الناس. .

يُمسك إبراهيم برأسه بين يديه. . ويبقى ساكنا لدقائق. .

ثم يدلف إلى الداخل ويعتذر لرفاقه . .

يدير ظهره لهم ويذهب للنوم.

- إبراهيم ! إبراهيم !

۔ م ؟

ـ هل أنت مستقظ؟

ـ نعم. . أقصد. . الآن نعم. . ماذا حدث يا نضال؟

-أريد أن أتحدث معك يا إبراهيم.

- في الثالثة صباحا؟

- هل تُفضِّل أن نتكلم غدا؟

ـ حسنا. . الآن. . انتظر حتى ألبس شيئا. . انتظرني بالخارج. .

ـ اتفقنا .

ـ لكن . . ما هذا الجنون . . توقظني في الثالثة صباحاً لتتحدث معي . .

- أتأتى أم لا؟

ـ نعم يا نضال أنا قادم . . أففف . . هأنا قادم . . هأنا . ماذا إذن؟

- اجلس .

ـ حسنا. قل لي.

. الأمر يخصني أنا وريهام. تَعْرف أننا تزوجنا منذ عامين. . و. . حسنا. . مَ علينا عامان ونحز نحاول إنجاب طفار.

ـ نعم. . بالطبع. وماذا بعد؟

ـ بالأمس ذهبنا إلى الطبيب. أتعرف يا إبراهيم أنها تعانى منذ فترة من الغثيان والدوار المستمر؟

ـنعم. . ثم؟

-كيف. . ألم تفهم بعد؟

ـ لا. ما علاقة الطبيب بالموضوع؟

- أنت فعلا بطيء الفهم! إبراهيم . . ريهام حُبلي في الشهر الثاني .

ماذا؟ حبلى؟ لكن.. حبلى.. أنت متأكد؟ الحمد لله! هذا فعلا خبر جميل! شيء مضحك.. نضال سيصبح أبا! أأأه.. خبر رائع بالفعل!.. لا أستطيع أن أتخيل هذا! ولم لم تبلغا الجميع ليلة أمس؟

-أكيد! لكن . . هل هو ولد أم بنت؟

- يا إبراهيم . . إنه فقط الشهر الثاني! لا يمكنها أن تعرف الآن!

-أووه . ياربى . نضال أصبح أبا أخيرا األيس هذا درب من الجنون ! وأنت الذى كنت تقـول إنك لن تفلح فى ذلك أبدا ! أتصـور كم ستكون ريهام سعيدة !

- فى الواقع هى لا تتوقف عن الحديث عن كل الأشياء التى يجب شراؤها للطفل، وبدأت بالفعل فى تفصيل بعض الملابس. الشيء الوحيد.. حسنا.. فى مثل هذه الفترة المضطربة.. أتساءل إن كان من الصواب إنجاب طفل. إننا.. أعرف أنه شيء حزين.. وأنه فظيع أن أنطق به.. لكن أنا وريهام ربما لانكون موجودين هنا بالغد.. لا يمكننا ضمان مستقبل ثابت وآمن لطفلنا. هل يحق لنا ولادة طفل من شأنه حين يكبر أن يصير نسخة مطابقة لوليد.. يملأه الحقد والكره والعنف؟ هل يحق لنا ذلك؟

- أفهم ما تريد أن تقوله يا نضال. لكن يجب أن نخرج من تلك الحرب. والسبيل الوحيد لذلك هو أن نحاول أن نعيش حياة طبيعية، وأن نحيط أنفسنا بتصرفات. وأفعال. وأوقات طبيعية أنت تريد طفلا يا نضال. حسنا. وأنا أقول لك إن هذا من حقك لكن واجبك سيكون أن تربيه على مبادئ صلبة . وإن كنت لا تريده أن يصبح نسخة من كل هؤلاء الصبية الساخطين . علمه طريق الله وو بجه نفسه إلى طريق السلام والإيمان . ولا تخضع للحرب . إنه شيء جميل جدا يا نضال . خبر مدهش . صدقنى النظر حتى ترى عندما يعرف الانجون ذلك!

- أنا. . شكرا يا إبراهيم . أعتقد أنك على حق . أريد أن أشكرك يا إبراهيم . . فها هى ثمانية أعوام منذ تعارفنا . . وها هى ثمانية أعوام وأنت صديقى . . بلا تحفظات . . ولم تَخُنى أبدا .

- كفي وإلا سأبكى.

لا . . حقا . . لم تسألنى أبدا عما فعلته خلال العامين الذين قضيتهما بعيدا عنكم . حسنا . . خلال هذين العامين حاولت إبعاد نفسى عن رباط بدا لى عميقا جدا . . أصيلا جدا . كانت تلك طريقتى فى الاستسلام للحرب . . لكنى خرجت من تلك الحالة عندما عُدت إلى جواركم . . ولا أريد أن أقع فيها ثانية . أحبك بحق يا إبراهيم . . أنت تعنى بالنسبة لى كل شيء . . فقدت أمى وأختى . . أبى لم يَعُد أبدا من سوريا . . ولا أدرى حتى إن كان لا يزال حيا . والآن أنا أحاول إعادة بناء حياتى من جديد . . وأنت الركيزة التى عليها أستند . أحبك بحق .

. أنا أيضا يا نضال. مهما حدث، ستدوم صداقتنا إلى الأبد.

⁻ إبراهيم ا إبراهيم ا استيقظ . . أسرع . . أسرع ا

_ إبراهيم!

⁻ آآآه . . ماذا . . ؟

⁻ إبراهيم . . استيقظ!

- آآآه . . كفي يا غبي! امش!

ـ إنها حالة طوارئ! يا غبى، استيقظ! الجنود. . أسرع!

- جنود؟ كيف هذا؟ أين؟

. اصح يا إبراهيم!

ـ لكن. . نضال . . ماذا يحدث؟

-جنود إسرائيليون! على بعد سبعمائة أو ثماغاثة متر من هنا! حوالى عشرة! هناك عراك . . وليد استفزهم! قُم!

لا فائدة. . إيراهيم كان قد وقف بالفعل . . وقف قافزا نحو الغرفة التي ينام فيها أحمد ومحمد ورامي . . قفز . . اذهب إلى حقيبة أحمد . . افتحها ـ لا فائدة . . كان يعرف هذا ـ لا شيء . . المسدس أحمد . . افتحها ـ لا فائدة . . كان يعرف هذا ـ لا شيء . . المسدس ليس موجودا فيها . . يجري نحو الباب . . يتعثر . . يقع . . تصطدم ركبته بشدة . . لكنه يرفع نفسه . . يرفع نفسه . . يجري . . يجري . . لاتبته بأنفاس نضال بجانبه . . ثم يلتفت لحظة . . ينظر إلى نضال الإوجتك . . أين زوجتك ؟ » . لكن نضالا يومئ برأسه كأنه يقول إلها في أمان . . لا تقلق . يجريان . أخيرا يصلان . . يريان . . طلقات نارية . صراخ . عربات مقلوبة تحمي خلفها الأولاد والرجال . . الجنود والرشاشات في أيديهم . . بالجانب الآخر . . . والرجال . . الجنود والرشاشات في أيديهم . . بالجانب الآخر . . يطلقون الرصاص بشكل عشوائي . . وترى الرميات الصائبة . . . يصب حجر جنديا في رأسه . . يسقط الجندى . . يسحبه زميله جانبا . . ويُطلق الرصاص صوب الرجل الذي ألقي الحجر . . يصيبه في ذراعه . . يجنح الرجل . . يأخذ حجرا آخر . . ويقذفه باليد في دراعه . . يجنح الرجل . . يأخذ حجرا آخر . . ويقذفه باليد البيني . . ثم يحتمي خلف سيارة «فيات» . . إبراهيم يرى وليد على البيني . . ثم يحتمي خلف سيارة «فيات» . . إبراهيم يرى وليد على

الأرض. . محمد ورامى وجهاد حوله . . هل حالته خطرة؟ خطرة؟ لا . . لا يمكن أن تكون خطرة . . هذا مستحيل . . لا يتنفس . . اجر . . الأمر خطير . . اجر . . اضطراب . . دماء كثيرة . . وليد على الأرض ,على الأرض ، دماء ، دماء . . الشفاه الجافة تتحرك كيف؟ كيف؟ كيف؟ حمل يمكن أن تقول لى ماذا يحدث . . و يسمع كلمة . . كلمة واحدة . . وسط ضجيج و جلبة المعركة . . تَسمع هذه الكلمة الصغيرة بوضوح . .

ماما..

وتستمر الحرب. .

يا إلهي. .

انتبه . . لا . عَطَّه . أسرع . . احمله إلى الداخل . . محمل يُصيب جنديا . . يَقع . . يقع . . يقوم . . يطلق النار . . طلقة في الهواء . . رامى يرميه بحجر آخر . . يُصيبه في عينيه . . يَرفع يدا إلى عينه ويرميه جهاد بحجر . . يُصيبه في رأسه . . يَقع . . يقع لكنه لايقوم ثانية . . ثم يُسمع صوت طلقة . . طلقة . . إنه رشاش . . صراخ . . رامى يقع على الأرض . . لا! لاااا . . أحدهم يصرخ . . إبراهيم . . ابراهيم . . انتبه . .

يمسك رامى ساقه الملطخة بالدماء. . لا شيء . . لا شيء . . الساق فقط . .

الساق فقط؟

وإن أصابتك الغرغرينة أيها الأبله.. أطلبوا الإسعاف.. يا إلهى.. الإسعاف.. محمد معه هاتف محمول.. ينقل وليد ورامى إلى البيت الله أعلم كيف ويطلب الإسعاف.. يطلبه.. على عجل.. أسرعوا.. أرجوكم.. الحالة خطرة.. الجرحى كثيرون.. نضال يرمى الحجارة بكل قوته.. يرمى.. يرمى.. بسرعة.. بحركة حثيثة.. بثقة.. بثبات.. لديه قوة في ذراعه.. قوة كبيسرة.. اثنان.. جنديان.. يصيب اثنين منهم.. إنه محظوظ.. الرصاص لا يصيبه إلا بخدش.. في البد.. لكنه محظوظ لأنهم يصوبون باتجاهه عدة مرات دون أن يصيبوه.. حجارة.. حجارة أكثر..

قوة في ذراعه. .

إبراهيم لا يشعر حتى بالحركة المستمرة. . السريعة . . شبه الآلية . التقط . . صوب . إرم . .

التقط. . صوب. . ارم. .

اقذف..

التقط..

اقذف..

اقذف . .

اقذف. .

كانوا خاثفين . . كلهم . . يجب أن يكونوا جميعا يقظين . . يقظين . .

أُقتل قبل أن يَقتلوك . .

الوضع خطر..

خوف. .

اقذف. .

إبراهيم يكتشف أنه أوقع بأربعة أو بخمسة. . لا بأس. . لا بأس. .

المشكلة أنهم بعد ذلك ينهضون من جديد . .

الله . . يدعو الله . .

باسم الله الرحمن الرحيم. .

خوف..

لكن أين أحمد؟ أين هو؟ ثم ها هو. . أنت تَرْصُد مكانه . . هو هنا . . لكن ماذا يحدث . . يلتف حول السيارة . . المخبأ . . يقف على بعد عشرين مترا منهم . . أقل . . ويَضرب . . يضرب . . أربع طلقات نارية . . أربعة جنود يسقطون . . وفي الوقت الذي تستعد فيه الخامسة للانطلاق . . سيَفعل . . حسنا . . سيَضرب . . تختلج عينه . . ماذا بها؟ ماذا أصابه؟ الشفتان مزمومتان . . العين تبرق . . البيد ثابتة؟ لا . . إنها ترتعش . . ترتعش ـ يبدو ذلك غير البيد ثابتة . . ثابتة؟ لا . . إنها ترتعش . . ترتعش ـ يبدو ذلك غير

معقول لكن . . لمدة دقيقة . . يتوقفون كلهم عن القتال ويلاحظون يَدا ترتعش . .

اليدالتي ترتعش. .

ترتعش..

ارتجاف. .

رُوْءً تُهزَّه حركات صغيرة تتعاقب بسرعة. .

تُحُرِّكه تذبذبات صغيرة..

يَضطرب داخليا. .

اليد. . العين. .

إنه يرتعش. .

تنطلق الرصاصة . . تنطلق . . لا . . ليست رصاصة . . بل اثنتين . . كيف يمكن ذلك؟ مسدس واحد . . في اثنتين . . كيف يمكن ذلك؟ مسدس واحد . . في لحظة واحدة . . رصاصتين؟ كيف يمكن ذلك . . لا . . لا يمكن ذلك علميا . . هناك خطأ ما . . لا . . لأنه ليس هناك مسدس واحد . . بل اثنين . . أو بالأحرى . . مسدس وبندقية . .

مسدس مسروق من جندي إسرائيلي مقتول. .

والبندقية تحمل عبارة «صنع في أمريكا». . وَصَلَت قبل شهر . .

تَخُص جنديا إسرائيليا. .

واحد وعشرون عاما . . جون كونيجسبرج . . تصويب ممتاز . . براعة فريدة . .

إنه موهوب في الرماية . .

موهوب..

قبل انخراطه في الخدمة العسكرية لم يكن يقدر حتى على لمس لوحات التصويب في ألعاب الملاهي . .

الآن تصويبه ممتاز . .

يُطلق النار . يُسمع صوت طلقتين . . واحدة في الهواء . . في الهواء . . في الهواء . . في الهواء . . في

الثانية تصيب الهدف. . تصيب الهدف. . أيهما؟ التي صوبت نحو أحمد. .

نحو أحمد..

الشريان السُّباتيِّ. .

غريب . . لأن الطبيب سيقول فيما بعد أن الرصاصة أصابت الشريان السباتي في مقتل . . اخترقته . .

خرجت من الناحية الأخرى..

تَصويب ممتاز . .

أحمد سقط . . أحمد يسقط . . جسده الخفيف . . جسد حالم . . جسد مُفكر . . شخص كان يحب القراءة ـ بشدة ـ . . شخص كان يقرأ ـ دائما ـ . . كان في الثالثة والعشرين من عمره . . أحمد كان أصغرهم سنا بعد وليد . . كانت عنده أحلام كثيرة ـ كان يريد أن يؤلف كتابا . . يسافر . . يتزوج . . وينجب أطفالا كثيرين . . ينتصر . . ينتصر . . ويعيش فى سلام على أرضه . . كان يريد فقط أن يعيش . . لم يكن يريد أن يفوز الفريق الوطنى الفلسطينى بكأس العالم ولا أن توسع المحكومة الفلسطينية من أراضيها . . كل ما حصل عليه هو رصاصة فى الشريان السباتى . . الثالثة والعشرون ربيعا . . الأربعة الأواخر مروا فى ظل الصمت . . إنها الحرب . . هلاك أبدى . . الحرب . . أحمد يسقط .

جنون . . هذيان . . إبراهيم بطل لمأساة . .

كان أحمد يعتبرها من الشكسبيريات. .

هاملت الذي يهذي . . الذي يهرب . . الذي يصرخ . .

الغضب الذي يخترق الجلد. .

داخل الروح . .

ويخدشها.

كان أحمد يقرأ. .

ولو كان إبراهيم أيضا قد قرأ هاملت. .

لكان عرف لا محالة..

أن الجنون . .

لا يخرج منه أحد.

أوقات يكون الفهم فيها صعبا . . صعبا ـ لماذا ـ . . ولربما . . ربما . . يمكن فيها الاختفاء . الاختفاء . . لأن المشاعر . . الأحاسيس . . تكون قوية جدا ـ قوية ـ ولا شك أنه لا يمكن معها الصمود . . هلاك أبدى . . هلاك أبدى . . صُور . . ذكريات . . شيء ما . . أشياء . . أشياء . . لا أشخاص . . أشخاص . . أنت تَدوق ليك . . لحضن . . لعناق . . لقُبلة . . للشخص . . لا للأشياء - لم يكن إلا فَي الشالثة والعشرينَ من عمره ووالديه؟ والديه أين يمكن أن يكونا؟ لماذا؟ هل هناك والدان بالفعل؟ أحمد كان معهم منذ خمس سنوات. . خمس . . ولم يتكلم أبدا ـ أبدا ـ عن أسرته . . لكن هل كانت هناك أسرة بالفعل؟ . . هلاك أبدى . . ليس عدلاً . . لو كانت هناك أسرة . . خطأ ألا يصلها الخبر . . أم . . أب . . كان يجب أن يعرفا . . أليس كذلك؟ سيكون ذلك من الصواب. . لكنهم لا يعرفون شيئا عن أحمد . . اللهم سوى سنه واسمه . . وأنه كان يحب القراءة . . أسرة؟ ماضى؟ . . لا شكرا . . في هذا البيت . . لم يكن أحد نافعا في شيء . . كان يكفى الرغبة في الانتصار . . في القتال . . كان يكفى أنهم شباب وشجعان . . كانوا كلهم متحابين بعضهم البعض . . كانوا كلهم متفاهمين . . لكنهم لم يسألوا شيئا عن الماضي . . لا . . لأن كل واحد منهم كان ما هو عليه . . لا يهم الماضي ولا حتى المستقبل. . فقط الحاضر. . ورغم ذلك . . رغم ذلك كانوا يعرفون بعضهم البعض عام المعرفة . . وكأنوا يثقون في بعضهم البعض . . بشكل غير معقول لاذا؟ . . . ليست هناك إجابة . . ربا . . يا إلهي . . ربما. . لو أن إبراهيم كان قد استيقظ قبل ذلك؟ . . لكن لماذا تأخر هكذا . . لماذا بهذا الشكل . . لا أحد يعرف . . لا أحد يفهم . . . رباه . . لم يكن إلا في الخامسة عشرة من عمره ـ لكم أتمنى الآن ألا

أكون قد صفعته هاتين الصفعتين . . أو حتى تركته يدخن . . فماذا كان فى ذلك . . القليل من كان فى ذلك على أية حال ؟ ماذا كان فى ذلك . . القليل من النكوتين؟ لا شىء . . لو فكرت أنه الآن لم يَعدُ موجودا . . لم يعد موجودا . . لم يعد النه الآن لم يعد المنا؟ لا شيام على الأرض . . لماذا؟ لا . القلب لن يصمد أكثر من ذلك . . ريهام على الأرض . . لماذا؟ لماذا؟ لماذا لماذا لماذا لماذا الماذا ال

ساعدني يارب على تحمل العذاب

ساعدنى يارب على تحمل العذاب

دَعْني أذرف تلك الدموع. .

إبراهيم مات . . مات . . لم يعد حيا . . أو . . إن كان حيا . . فهو يفعل ذلك على صعيد آخر . .

صعيد آخر من الموت. . الألم . .

لكن . . ألا يزال حيا؟ يتساءل . . يتساءل ـ ألا زلت حيا؟ ـ دمعة . . اثنتان . . هلال رفيع . .

رفيع كخيط يفصل الحياة عن الموت. .

سماء مملوءة بالنجوم ـ مملوءة ـ نقط مضيئة تتوج وجه السماء البديع . .

ودموع ـ دموع ـ غزيرة . . لا نهائية . . إبراهيم يفكر . .

يفكر..

لا يزال هناك حياة من الدموع . .

يمكنك البكاء حتى الموت. .

الموت..

لم يعد يهمه . .

إنه يكره. .

یکره. .

لا تسألوا ماذا يكره. . في هذه اللحظة . . هو يكره الموت ويكره الحب . .

الحب الذي عذبه . .

يكره الجنود..

يكره كل إسرائيلي يعيش على وجه الأرض. .

إنهاكراهية غير مشروطة. . غير عقلانية. . لا يمكن شرحها. . تبريرها. .

ولا حتى انتقادها . .

كلا. . لا يمكن . . دموع . .

دموع أخرى . .

يدعو الله. . يدعو الله. . يوما ما سينتهي كل شيء ـ سينتهي ـ لكن. .

إبراهيم لم يَعُد موجودا.

رامي قابل بتر رجله بحسرة وألم . .

وابتلع قارورة دواء. .

محمد ترك عمله بالمستشفى . .

وكرس حياته. .

للصلاة..

فَقَد كل صلة له بالواقع وصار مختلا. .

تم حجزه في مصحة نفسية . .

نضال كره كل يوم بقى له من الحياة دون زوجته. .

والحياة الصغيرة التي أثمرها معها. .

إلى أن تَدَخَّل في حادث تراشق بالرصاص ولقي مصرعه. .

على يد جنديين. .

جهاد ترك فلسطين وذهب إلى سوريا. .

حيث حاول عبثا أن يعيد بناء نفسه ووجوده . .

الآن، يهيم على وجهه بلا روح ولا وعي..

يعيش لأن تلك هي مشيئة الله . .

إبراهيم . .

إبراهيم يموت كل يوم، في نفس الوقت الذي يموت فيه أخ فلسطيني . . طفل . . امرأة . . رجل . .

في نفس الوقت الذي تموت فيه الانتفاضة والذين يقاتلون من أجلها.

اهـــداء

أهدى هذه القصة _ التى تعد كل شخصياتها وأحداثها (باستثناء بعض الأحداث المنقولة عن وسائل الإعلام) من صنع خيالى بالكامل _ إلى محمد جمال الدرة . . ذى الإثنى عشر عاما . . الذى مات مثل أحمد . . مثل وليد . . بدون سبب . . بشجاعة . . أهديه هذه القصة ، وأدعو لأجله أن يحظى أينما كان . . أينما وجد . . بشىء أفضل من الكراهية والموت في تلك الحرب .

وقد داك ازي

حالم بغاسطين

عندما شاهدت رندا الفتاة الإيطالية المصرية السمراء ـ التي لم يكن عمرها قد تجاوز الخامسة عشرة ربيعا . الطفل الفلسطيني محمد الدرة يقتل أمامها على شاشة التليفزيون برصاص جندى إسرائيلي.. تأثرت بوحشية ما رأت وهي الفتاة الرقيقة ذات الحس الأدبى المرهف.. لم تصدق عينيها.. لم تكن تعرف عن القضية الفلسطينية إلا القليل مما ينقله الإعلام الغربي.. لم تصدق أن ما رأت يقع على مرأى و مسمع العالم كله.. ذهلت.. و قررت أن تبحث عن الحقيقة.. راحت تسأل والديها.. وتقرأ في الكتب. وتُبحر عبر صفحات الإنترنت.. اكتشفت و فهمت الكنير.. و كتبت قصة قصيرة فازت عنها بجائزة أدبية للأطفال في إيطاليا.. حولتها بطلب من الناشر الإيطالي إلى رواية .. لاقت إقبالا كبيرا. فطبعت ثلاث مرات .. وكتب عنها أكثر من مائة عرض وتعليق.. ثم بدأت ترجماتها تظهر.. وبدأت معها الشهرة الدولية والمهاجمات من اللوبي اليهودي الذي لا يريد أن يقرأ العالم أو يرى أو يسمع إلا وجهة نطره وحده..



